حكايات في المنفى
ابراهيم حسن ، ربا رحمة ، رشا علي ، رشا مريعى ،
رويدا قاسم ، سارة البيطار ، طلال دادو، طيبة دادو،
محمد البدر ، ياسر الوكاع

## الإهـــداء:

اعتـدنا فـي كـلّ كتـاب أن نـهـدي كتابنـا إلـى أحـدهم، إلـى أم، أو أب، أو ولـد، أو حبيـب. لكـن فـي هـذا المقـام يختلـف نـوع الإهـداء، فالإهداء مقدم إلى فريق عمل كامل، إلى من كان السّبب في أن يخرج هذا الكتاب إلى العلن.

أحـب القـول قبـل كـلّ شـيء، إن هـذا الكتـاب أخـذ مسـارات عديـدة حتّـى وصـل إلـى مـا هـو عليـه اليـوم، مـن إعـداد مشـروع دورة الكتابـة الإبداعيـة والخطابـة، إلـى نهايتـه بعـد أن مـرّ بسلسـة مـن الجلسـات الّتـي كانـت علـى مـدى ثلاثـة أشـهر، لـولادة هـذه الأقـلام الّتي تستحقّ كلّ التقدير.

إلـيكم جميعًا كتّـاب هـذا الكتـاب أقـدّم إهـدائي، كمـا أقـدم إهـدائي لمـن موّل المشروع، والشّكر والإهداء الأكبر لطلال وربى.

**برنامج "المدن الشابة":**

هذا الكتيب يصدر عن مبادرة "هوية أمل" الشبابية بدعم من شبكة المدن القوية وبرنامجها الشبابي "المدن الشابة"(Young Cities)، الذي يهدف إلى تمكين وبناء قدرة الشباب والشابات على المشاركة في شؤون مجتمعاتهم المحلية، بالشراكة مع أصحاب المصلحة المحليين في البلديات.

**عن مجموعة "هوية أمل":**

"هوية أمل" هي مجموعة من الشباب والشابات المهتمين بالأدب والثقافة والمجتمع، الذين ينشطون في مجال العمل التطوعي والثقافي في مدينة صيدا، لبنان. يساهم مشروع "هوية أمل" بإعطاء الشباب اللاجئين والمهتمين بالثقافة والأدب مساحة آمنة لممارسة مواهبهم، وإبراز أصوات شبابية على المستوى المحلي. تستطيع المدن الاستفادة من أفكار ونشاط الشباب والشابات من أجل دعم التماسك المجتمعي والحس بالانتماء من خلال تزويدهم بفرص للمشاركة في شؤون المدينة اليومية.

**الكتيب:**

هذا الكتيب هو خلاصة عشر ورش عمل مع أستاذة جامعية في مجال الكتابة الإبداعية جمعت 15 مشاركًا من شبان وشابات من مجتمعات لاجئة في صيدا. يجمع الكتيب نصوصًا من تأليف المشاركين، تهدف إلى إبراز موهبتهم وإلى بث صورة حقيقية عن تطلعاتهم واهتماماتهم في ظل تجربة الحياة اليومية في مدينة صيدا والجوار.

المحتوى يعبر عن آراء الكتّاب ولا يعبر بالضرورة عن آراء برنامج "المدن الشابة".

لا يسمح بنسخ أو تقليد المحتوى كليًا أو جزئيًا إلّا بتصريح خطي واضح من برنامج المدن الشابة.

**مقدمة الكتــاب**

بعد مرور ثلاثة أشهر على ورشة الكتابة الإبداعيّة، وصلت إلى قناعة راسخةٍ بأنّ هناك أنامل صغيرة تنمو بين الزّهور، تحتاج إلى من يعتني بها ويرعاها، لتصيرَ نسورًا تحلّق في الأعالي.

عندما جاءني طلال ورُبا للتّحدّث معي حول الدّورة، وكان ردّي بالإيجاب طبعًا، لكن في الوقت نفسه لم يتبادر إلى ذهني بأنّني سألتقي بشبابٍ وشابّاتٍ لهم هذه القدرة في الكتابة والإبداع. حين التقيت بهم للمرّة الأولى ظننت أنّ كتاباتهم ستكون ككّل الكتابات الّتي تصدمنا في زمنٍ دعاة الكتابة والقلم فيه كثر، لكن بعد انقضاء الأسبوع الأوّل، ولقائي بهم للمرّة الثّانية، وعند متابعتي لبدايات كتاباتهم، وجدت نفسي أمامَ أقلامٍ أبهرتني بإبداعها، وبتنوّع أساليب كلّ قلمٍ على حدٍّ سواء، فرحت معهم أبحر في عالمهم الخاصّ، إلى عالم غريب، بدأت باكتشافه شيئًا فشيئًا، وعندها أدركت بأنّني أمام خيالاتٍ واسعةٍ تحمل في أفقها أحداثًا عديدة.

فطلال يأخذك إلى حكاية حبٍّ مرّت بالكثير من العثرات، ورُبا تروي لنا قصّة اللّجوء المتكرّر الّذي قد لا يجد نهاية له، ورشا بنفسجتها فاح عطر دمها على صفحات وجع وألم، وسارة الواقعيّة برواياتها في سرد من البيئة المعاشة، والحياة اليوميّة لأسرة فقدت سندها، ورويدة تروي قصّة ألم فقد الأمّ، ورشا برائحة الجنوب تقصّ حكاية حبٍّ لم ترَ النّور، وإبراهيم وقصّته مع العنصريّة الّتي عاشها في اللّجوء الّذي لم يكن يتوقّع أن يعيشه يومًا ما، أمّا محمّد فقد ذهب بنا إلى عالمٍ آخر مختلف عن القصص الأخرى، فهو أخذنا إلى قصّة موتٍ وولادةٍ، وياسر المبدع شعرًا ونثرًا بأوراقه الملوّنة، وطيبة الّتي لا نستطيع أن ننساها أبدًا برواية قصّة حبّها مع ذاك الشّابّ الّذي كان ومازال بطل روايتها.

كلّ تلك القصص كتبت بأنفاسٍ مختلفة، وبأساليب متعدّدة ربّما تدعوني إلى القول:" إنّ الإبداع في ترابنا مزروع، وعلينا أن نبحث عنه بأناملنا، نرويه حبًّا، ورعايةً، فنحصده أدبًا ألَقًا".

ولن أنسى الصّورة الجميلة الّتي كانت خلف الشّاشة دائمًا، إنّه وليد البهيّ، الّذي حرص على أن يقدّم لنا الأجمل والأبهى.

**د. انتصار الدّنّان.**

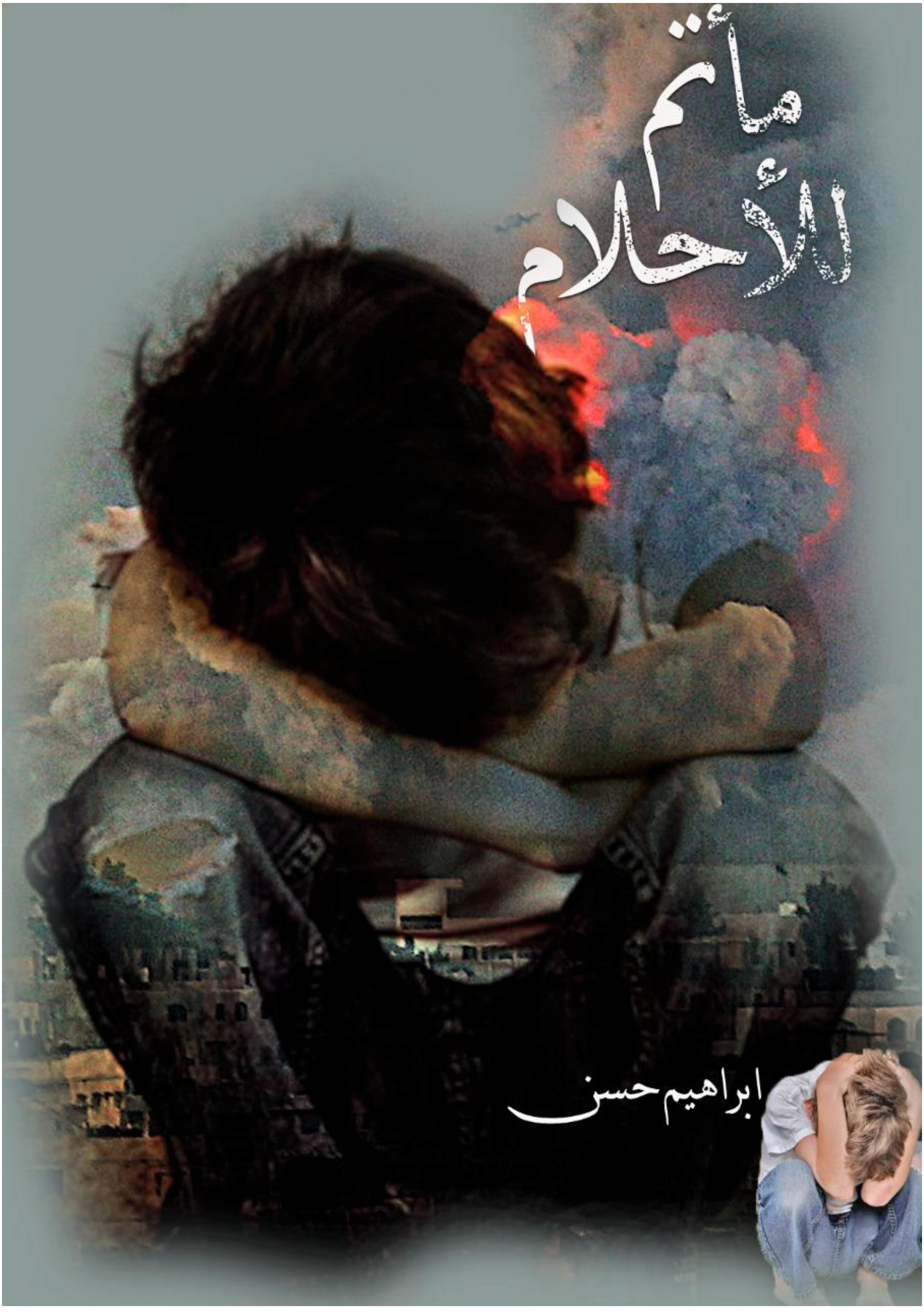
مأتم
الأحلام
ابراهيم حسن

## مــأتـم للأحــلام

سينتهي كلٌّ شيء يومًا ما
ولربّما يومًا ما يأتي في الغد
قالها شابٌّ آلمته جراحه
فقتلته أوجاعه.

**ابـراهيــم حســـن**

لم يكن نيّار كأيّ طفل، يعيش طفولته الّتي من المعتاد أن يعيشها أيّ طفلٍ في العالم، فهو لاجئ في العاشرة من عمره، يعيش في مخيّم الحسينية في الشام، هو مخيم كباقي المخيّمات الفلسطينيّة، لم يحظَ بشهرة مخيمات أخرى. لكن مخيّمه أيضًا كان رائعًا بأناسه الطّيّبين وعفويّتهم، وحبّهم لبعضهم البعض. ابتسامة وشتاء، عائلة وأصدقاء، وتلك الحبيبة المتكبّرة المغرورة، كلّ ذلك كان سبب سعادته في الحياة، كانت العائلة تلعب دورًا كبيرًا في حياته. يتّصف نيّار بأنّه الأكثر هدوءًا بين إخوته برغم مزاجيّته في بعض الأحيان، وهو كباقي الأطفال الّذين يرغبون باللّعب والمرح، خاصّةً في شهر الصّوم، شهر رمضان الكريم، فقد كان يتسلّل من نافذة غرفته الصّغيرة هاربًا من بيته، بعد أذان المغرب بخمس دقائق، للّعب بالمفرقعات، وإزعاج النّاس، كما كان يطرق على أبواب النّاس، ثمّ يهرب مع أصدقائه، وحين يعود، يكتشف أهله خروجه من المنزل، ويأخذ نصيبه من "البهدلة". نيّار طفلٌ مخادع في جذب القلوب إليه، فقد كان الحفيد المميّز عند جدّه، ففي بعض الأيّام كان يرافقه أينما ذهب، وحين لايقبل باصطحابه، كان يلاحقه حتّى يصل إلى بيت ابنته أو صديقه في المخيّم، وقبل أن يصل بمسافة قليلة يُظهر نيّار نفسه لجدّه مع ابتسامته اللّعينة، ونظرته البريئة.

نيّار كان يتمتّع بحياة جميلة وأحلام ليس لها نهاية، من أحلامه البسيطة شراء درّاجة هوائيّة، لكنّه لم يستطع شراءها بسبب خوف أهله عليه من السّيّارات المارّة، فدخل نيّار بحالة اكتئاب، حينئذٍ أصرّ نيّار على تحقيق حلمه، فقرّر أن يجمع بعضًا من المال، من مصروفه اليوميّ لكي يشتري الدّراجة، لكن لسوء الحظّ لم تكتملْ أحلامه، و بدأت أوضاع البلاد تضيق وتسوّد. حصلتْ ثورة في سورية، وسرعان ما تفاقمت، و صارت رياح الحرب تعصف في أرجاء المدن والأرياف حتى اقتربت من أبواب المخيّم.

بدأ نيّار وعائلته يجهزون الحقائب، وأوراقهم الثّبوتيّة بسعادة لا توصف، وكانت عيناه مشرقتين كإشراقة الشّمس، وابتسامته الوردية لا تفارق وجهه،

والكثير من التّخيّلات بأنّ لبنان جنّة، وراحة، ولعب، وأنّ حياته ستصير أحلى وأجمل بكثير من حياته في البلد الذي كان يعيش فيه.

في اليوم التّالي ودّعوا جيرانهم، وأقاربهم، وأخبروهم بأنّهم لن تطول غيبتهم، شهر لبينما تهدأ.

في طريقهم إلى لبنان ودّع نيّار هواء وطرقات الشام، وتمنّى لو أنّه يغطّ في نومٍ عميق، ولم يرَ تلك الجثّة المنتفخة بجانب الطّريق، فهذا المنظر حوّل يومه إلى ظلام.

عند وصولهم استقبلهم أقاربهم بابتسامة وضمة وحبّ، كانوا يسكنون في منطقة تسمّى تعمير المخيم ، أسقف البيوت كانت من (الزينكو) حيث الأرض يسكنها التّراب، والغبار يملأ المكان كلّه، حتّى إذا ما أراد اللّعب (كرة القدم) تتلطّخ ثيابه كلّها بالطّين والغبار، فكانت والدته أحيانًا توبّخه، وتدعوه لعدم اللّعب مرة أخرى في الشارع.

كان النّاس في ذاك المكان مختلفين عنه وعن عائلته، فهم كثيروا الشّتم، فشعر بخيبة أمل. بعد مرور أيّام من وصوله، خاب ظنّه، فالّذي كان يتخيّله بعكس ما رآه. بعد انقطاع عام دراسيّ كامل عن المدرسة، قرّر نيّار الالتحاق بالمدرسة من جديد، فهو لم يظنّ أن اللّجوء سيمتدّ إلى سنوات، فالتحق بمدرسة تابعة للأنروا في المخيم، حيث كان كلّ أصدقائه من الجنسية الفلسطينية السورية. كانت معاملة المعلمين جيّدة معهم، لكن لا يخلو الأمر من تذكيرهم بأنّهم لاجئون أحيانًا. كان اليوم الأوّل لنيّار كئيبًا، لأنّه كان غريبًا، ولايعرف أحدًا من التّلاميذ، لكن مع الأيّام كان يتلاشى ذلك الشّعور تدريجيًّا، فقد بدأ يتعرّف على رفاقه في الصّفّ.

لم تكتمل فرحة نيّار بنجاحه إلى الصّفّ الثّاني الإعدادي بعد سماعه من بعض المعلّمين بأنّهم سيعملون على دمج الطّلاب في الصّفوف.

دخـل نيّـار صـفّه الجديـد، وهـو بـائس، و محـبط، والخـوف يُكبّلـهُ. بعـد مـرور شـهر وهـو يتصـارع مـع المنهـاج الجديـد الّـذي يُـدرّس بأغلبـه باللّغـة الإنكليزيّـة، وضـعفه فيهـا، والصّـعوبات الّتـي تواجهـه فـي عـدم القـدرة علـى الإنـدماج، فـإذ بصـديقه أدهـم الّـذي تعـرّف عليـه خـلال السّـنة الماضـية، ينصـحه بـأن يكمـل دراسـته بمعهـد خـاص، بشـرط أن تُجـرى الامتحانـات بحسـب منهـاج بلـده. سـارع نيّـار لإخبـار أهلـه بـالأمر، لكّـن الـرّد لـم يكـن بحسـب توقّعاتـه، فوالـده منعـه مـن الالتحـاق بـه، خوفًـا عليـه مـن العـودة إلـى وطنـه حيـث الحـرب.

فـي نهايـة العـام أتـت نتيجـة نيّـار برسـوبه، فحـزن حزنًـا كبيـرًا، وعـاد إلـى البيـت مكسـور القلـب، مـا دعـاه إلـى عـدم متابعـة تعليمـه. مـرّة جديـدة، دفعـه أدهـم وبـلال للالتحـاق بـذاك المعهـد، وعـاود نيّـار تكـرار الأمـر علـى أهلـه، لإقنـاعهم بـالأمر، وتحـت إلحاحـه، وافـق أهلـه علـى أن يلتحـق بـذاك المعهـد.

بعـد مـرور شـهرين مـن دوامـه فـي المعهـد تلقّـى نيّـار وعائلتـه صـفعة غـدر مـن أقربـائهم الّـذين اسـتقبلوهم فـي بدايـة اللّجـوء، ولـم يكـن ذاك الأمـرُ متوقّعًـا، مـا دفـع نيّـار إلـى الشّـرود فـي الحصـص الدّراسـيّة. فـي داخلـه حـربٌ وصـراعات. اسـتمرّ علـى هـذا الحـال حتّـى اقتربـت الامتحانـات النّصـفيّة، مـا جعلـه يرسـب. فـي الفصـل الثّـاني قـرّر نيّـار أن يتعـب ويـدرس لكـيّ لا تتكـرّر الانكسـارات والخـذلان، ففـتح صـفحة جديـدة مـع نفسـه، ووضـع هـدفًا فـي حياتـه.

بـدأ نيّـار يهيّـئ نفسـه للـذّهاب إلـى سـورية ويسـتعدّ لامتحانـات شـهادة البريفيـه (الثّالـث الإعـدادي)، وبـدأت رحلـة جديـدة مـع نيّـار وزملائـه، فعنـد حـدود البلـدين تقـدّم ليعطـي رجـل الأمـن أوراقـه الثّبوتيّـة، وإذ بـه يرمـي تلـك الأوراق علـى وجهـه قـائلًا:" عليـك مليـون وميتـين ألـف غرامـة كرمـال إقامتـك".

أخـذ نيّـار تلـك الأوراق متوجّهًـا إلـى مـدير المعهـد الّـذي كـان معهـم فـي الرّحلـة، ووجـد الكثيـر مـن الطّـلاّب أمثالـه، علـيهم بمـا يسـمى بالكسر أي كسـر الإقامـة فـي

لبنـــان. وقتهـــا طلـــب منـه المـــدير أن ومـــن رفاقـــه أن ينتظـــروا لعلّـــه يصـــدر عفـــوًا عامًّـــا عـــنهم جميعًـــا، وفعـــلًا تـــمّ العفـــو، وتـــابعوا طـــريقهم إلـــى حيـــث يريـــدون.

مضـت أيّـام لـن تنسـى مـع زمـلاء الدّراسـة فـي مدرسـة داخليّـة، وسـط الشـام. علـى الـرّغم مـن الخـوف مـن الامتحانـات، والتّسـاؤلات الّتـي كانـت تـدور فـي رأسـه لـم ييـأس، فـالنّوم فـي مكـان واحـد مـع الأصـدقاء كفيـل بـأن تكثـر المزاحـات والأحاديـث الّتـي سـهروا عليهـا أحيانًـا، وربّمـا يأخـذهم الحـديث عـن شـوقهم لأهلهـم ومحبّـتهم للبقـاء فـي البلـد الّـذي ولـدوا فيـه، وعاشـوا وقضـوا أجمـل أيّـام طفـولتهم، ولا يخلـو الأمـر مـن اتّصـالات والدتـه اليوميّـة، والحنـين الّـذي يشـتدّ فـي صـوتها حـين تصـف لـه كيـف تـرك فراغًـا كبيـرًا بيـنهم، تقـول والدتـه:" متـى سـتعود ؟ البيـت دونـك مظلـم ، متـى سـتعود " لتجـاكر " فـيّ و تـزرع الابتسـامة علـــى وجوهنـــا، لقـــد كنـــت ســـببًا فـــي إضـــحاكنا بالبيـــت".

بعـد أن أنهـى نيّـار الامتحانـات الأخيـرة للشّـهادة الإعداديّـة، عـاد وزمـلاؤه بعـد تعـبٍ كثيـر، فقـد شَـهِدَ عـذابًا، وعنصـريّةً، وتمييـزًا منـذ دخولـه إلـى تلـك الأراضـي، فهـو لـم يكـن يتوقّـع ذلـك، لأنّـه لـم يكـن يعـرف التّفرقـة والتّمييـز، فقـد كـانوا يـدًا، وقلبًـا واحـدًا، ولـم يكـن يسـمع كلمـة " يـا فلسـطيني ".

لـم يجتـازوا الحـدود سـريعاً، فقـد ظلّـوا منظـرين حـوالي خمـس سـاعات، بسـبب التّعقيـدات عنـد الأمـن العـام، لأنّ الفلسـطيني لا يحـقّ لـه الـدّخول إليـه، بموجـب قـرار صـدر فـي 2015، الّـذي بـات مزعجًـا لهـؤلاء اللّاجئـين الّـذين تشـتت أســـــرهم مـــــا بـــــين البلـــــدين.

بعـد مـرور سـنتين فـي مواجهـة التّمييـز والعنصـريّة، حصـل معـه موقـفٌ لـن ينسـاه طـوال حياتـه، فقـد كـان نيّـار فـي أيّـام عطلـة الصّـيف، يعمـل بمؤسسـة للتّكييـف والتّبريـد، وكـان توقيـت عملـه مـن السّـاعة الثّامنـة صـباحًا حتّـى الخامسـة عصـرًا، وفـي أحـد الأيّـام، وعنـد عودتـه مـن عملـه و دخولـه إلـى المخـيّم، وكـان منهـك

الجسـد، وملامـح وجهـه كعجـوز تسـعينيّ علـى فـراش المـوت، وإذ بعسـكري عنـد حاجز مدخل مخيم:

- هويتك
- تفضل
- شو اسم أمك
- مكتوب وواضح منيح الاسم بالهويّة
- عم بقلك شو اسم امك
- مكتوب عالهوية

نظـر العسـكريّ لبضـع دقـائق بالهّويّـة، وإذ بـه يمسـك بيـد نيّـار باحتقـار، وبهمجيّة أدخله إلى "الدّشمة"، وقال له:

- وجهك على الحيط ، وارفع ايدك

وراح عسـكريٌّ ثـانٍ بتفتـيش نيّـار مـن رأسـه حتّـى آخـر إصـبع فـي رجلـه، وراح يسأله

- ما معك شي إثبات غير الهوية
- تصريح الدخول
- وين إقامتك

أنـزل نيّـار يديـه واتجـه نحـوه ليجيبـه عـن أسـئلته، فصـرخ العسـكري:"ارفع إيدك و خلي وجهك عالحيط ".

اتّصـل العسـكريّ بمركـز حـاجز الحكـومي، ليستفسـر عـن تصـريح الـدّخول، لكن لم يردّ أحدٌ على الهاتف، وبعد عدّة محاولات، والنّتيجة ذاتها:

- خلص روح.

أخـذ هويتـه وخـرج وكانـت عينـاه محمـرّتين، كانتـا كـالجمر، لـيس خوفًـا، إنمـا غضـبٌ لحـال اللّاجـئ. هنـا تـذكر نيّـار متحسّـرًا، وقـال فـي نفسـه:" لـم تكـن يومًـا بلاد العُرب أوطاني، وما كانت إلّا بلاد الذّلِّ والعارِ".

نيّـــار شـــابٌّ يتمنّـــى لـــو أن الحيـــاة مليئـــة بالسّـــلام، وبـــالقلوبِ الخضـــراء، ويولـــد الحـــب، لكـــن بـــرغم بشـــاعة الحيـــاة وقســـوتها يعبـــر نيّـــار عـــن شـــغفة و أملـــه بالحيـــاة بممارســـة هوايـــة الرّســـم، الّتـــي يـــرى مـــن خلالهـــا الجانـــب الإيجـــابي بالحيـــاة علـــى الـــــــــرّغم مـــــــــن فشـــــــــله فـــــــــي بعـــــــــض الأحيـــــــــان.

هكـــذا مضـــت الأيّـــام باحثًـــا عـــن حياتـــه الّتـــي يرغـــب بهـــا، لكنّـــه وجـــد نفســـه مجُبرَاًعلـــى العـــيش فـــي بـــلاد الغربـــة الّتـــي امتـــدت وطالـــت لســـبع ســـنوات، وفـــي إحـــدى اللّيـــالي ضـــاق صـــدر نيّـــار مـــن عـــدّة أمـــور تراكمـــت فـــوق قلبـــه، خـــذلان، غـــدر أقـــارب، فـــراق ومـــوت وكســـر جنـــاحيْ ذاك العصـــفور المســـجون داخـــل قفصـــه الصّـــدري، ثـــمّ جـــراح، والكثيـــر مـــن الـــذّكريات، حينهـــا لـــم يكـــن أحـــدٌ فـــي غرفتـــه، فتنـــاول ورقـــةً وقلمًـــا ليبعثـــر كلماتـــه بـــين السّـــطور، وبـــدأ بالكتابـــة: (ليلـــة بـــاردة مليئـــة بـــاللّا أحـــد، يكســـوها الهـــدوء، شـــوارع المخـــيّم خاليـــة مـــن البشـــر والظـــلام يســـوده، غيـــوم ســـوداء مفخّخـــة بالـــدّموع والكآبـــة، تكـــاد تنفجـــر مـــن شـــدّة ألمهـــا وحزنهـــا، فلربّمـــا أتـــت هـــذه الغيمـــة الّتـــى أشـــبهها لتشـــاركني عزلتـــي ووحدتي

وَالحلم
بقيّة
ربا علي رحمة

## وللــحـــلم بقيـّــة

صوت موسيقى المونامور يشدّني لأحمل قلمي وأكتب كلّ ما بداخلي، لأكملَ قصّتي الّتي رويتـها في كتاب " ١١ حكايات من اللّجوء الفلسطينيّ " الّتي كانت كلّ أحداثها حقيقيّة، والّتي من حسن حظي أو سوئه اختارني القدر لأكون في فيلم قاسي المشاهد وأكون فيه البطلة.

ربا علي رحمة

بدا الأمرغريبًا فأنا الآن لا أشعر بأيّ شيء، فقد حضرت إلى المطار قبل ثلاث ساعات، ورحت أتأمّل، وأفكّر كيف للزّمن أن يكون سريعًا لهذه الدّرجة. هنا ودّعتها بجنسيّة عربيّة، وبعد ساعات قليلة سأستقبلها بجنسيّة أخرى. ترى هل ستتغيّر معالمها العربيّة، وهل سأشتمُّ رائحةَ أبي في معطفها. آه كم يُتعب الانتظارصاحبه! وكم تشتدُّ عليّ الدّقائق ببطئها! لم تعد للمسافاتِ قيمةٌ، ولم تعدِ الأمكنة وحدَها محرّكًا لانبعاث الذّاكرة، فثمة أحلامٌ تراودنا، فتجعلنا نعيش في واقع نختاره نحن، على الأقل بإمكاننا أن نحلم حتّى الآن.
قبلَ أيّامٍ قليلة كان عيدُ ميلادها، تفقّدت هاتفي كعادتي وإذ بإخوتي يرسلون لها التهاني والمعايدات على مجموعة الواتساب الخاصة بعائلتنا، ولكنّي قبل أن أهنّئها اتصلْت ببلال لأزفّ له خبرًا أبهجني، وأدخل الفرح إلى حياتي من جديد. لقد تمّت الموافقة على زيارتها إلى البلد الذي استضافنا بعد طول انتظار. أربع سنوات كفيلة لكي تحدّث نفسها عن أمٍّ سُلبتْ ابنتها من أحضانها، عن ابنة مهما كبرتْ كانتْ بحاجة لتضمّ والدتها في آخر كلّ ليلة، وكما توقّعت تلقى بلال الخبر بالفرح المتبادل، وإذ بي أرسل هذا الخبر، ليكون هديّتها في يوم ميلادها. لا أدري إن كان الأمرُ مضحكًا أو محزنًا، تلك التعقيدات للقاء العائلة الواحدة فوطأة الحياة وتعقيداتها صارت أشد هولاً ووطئاً من مرارة الغياب.

بلال وعائلته، وفريق الزّفة، وشباب لاجئ غالبيّتهم أتوا ببوسطة من صيدا إلى المطار، يحملون بالونات، كُتب على كلّ بالون جملة من أغنية قديمة كنّا نغنّيها في طفولتنا: " يامو يامو، يا ست الحبايب يامو، كم جوز جرابات رقعتيلي".
أثار منظرهم خوف الأمن، لكن كعادتي طلبت إذنًا منهم، لدقّ الطّبول، وإقامة عرسٍ لاستقبال الأحبّة، مشهد استقبال نهيل أختي حين أتت من أمريكا قبل أربع سنوات أو أكثر في هذا المكان بالذّات، حيث تعرّفْت لأوّل مرة بابنتيها نايا وجوري، حتى كرم الّذي تركته بعمر السّنة، عاد وقتها بعمر الخمس سنوات حين اشتدّ القصف على منطقة الحجر الأسود في 2010، وقتها خشيتْ نهيل على عائلتها وغادرت إلى أمريكا. تتسارعُ

الأفكار في رأسي، وشباب لاجئ من حولي، أم بلال تضمّني، والصّغير موسى ذو التّسعة أشهر (ينئنئ) من هول المكان والموقف ربّما، وليد يصوّر، وبلال يجهّز فريق الاستقبال، ويشدّ طبله، ويرتدي ثيابًا مزخرفة ولامعة، أمّا عن الباقي فهم يحاولون إلقاء بعض النّكات الخفيفة لتهدئة توتري، وعيناي لا تفارقان الشّاشة المعلّقة على باب وصول المسافرين فهي الّتي تستطيع إخباري بكل ما يحدث في الدّاخل.

وصلت الطّائرة والذّهول يسير في جسدي، أراقب تحرّكات الباب الّذي كان يُفتح على حسّاس أناس مسافرين، وفي كلّ مرة يُفتح فيها على مصراعيه ترى الرّقابَ طالت، والأعناق امتدت، لعلّي أرى امرأةً بيضاء الوجه، امرأة بحنانها سطّرت كلّ معالم الأمومة والطُمأنينة. امرأة تحمّلت أوجاع البحر والغرق، وصوت المهرّبين. أمّي تلك الوردة الّتي أضاءت ببريقها أيّام دراستي الابتدائية وطيش مراهقتي، وغربتي في كبري. حين لاحت ملامحُها أمامي بُحّ صوتي، وشلّتْ قدماي عن الحركة. إنّها أمّي، لِمَ لا أركض وأعانقها، لِمَ لا أصرخ.

بصوت مرتجفٍ أخبرتهم بأنّها أمّي مشيرة إليها بإصبعي المرتعش، مشيتُ بخطواتٍ هادئةٍ ثابتة، حقيبتي على ظهري لا أدري لِمَ لمْ أعطها لأحد. حين وصلْتُ إليها علا صوتي، "أمّي". أدارت وجهها، وعانقت سنين الفراق بين أحضانها، واختزلت كلّ تلك السّنوات الأليمة بدفء صوتها.

اليوم بالذّات فهمت معنى أن توشم أسيل اسم أمّها على يدها، اليوم بالذّات تعود الرّوح لبيتي الشّاحب. ضممْتها، ولم أشتمَّ أيّة رائحة لأوروبا. بقيتْ كما هي، إنّها فعلًا أمّي. سارع عامر لأخذ حقائبها، وبدأت تُقرعُ الطّبول عند باب المطار من الخارج، وبدأ النّاس يجتمعون حولنا ويسألون:

"عرس مين ؟".

إنّه ليس عرسًا، إنّها أمّي الّتي فارقتني رغمًا عنها، لكن لا بأس اليوم هي هنـا، ستكون قربـي، وستنام بجانبي، وسنأكل سويًّا، وسنمشي علـى الكـورنيش البحـريّ. مـن اليـوم لـن أتـأخّر عـن المنزل أو أخرج في منتصف اللّيل، وسأسألها إذا ما أردت الخـروج لـيس لأنّنـي مرغمـة علـى ذلك بل لأنّني اشتقت أن يخاف عليّ أحد أو أن يسألني متى سأعود. صديقة لـي تحسدني علـى وحدتي، وأنا لا أودّ القول بأنّني لم أكن أكره تلك الحريّة المطلقة، لكنّي بالمقابل لم أكن أحبّها.
تسعة وعشرون يومًا، سأستثمرُها بكلّ ما فيها. قبل سنة كاملة استيقظت على لمسة يدها تمسح رأسي، فتحتُ عينيّ ومازال ذاك الشّعور. لم أستطع أن أدير ظهري لأتأكّد إن كنْتُ مازلتُ فـي الحلم. أغمضْت عينيّ ثانيةً، ورحتُ أغـوص بـأحلامٍ وكـوابيسَ تخـتلط مـابين بيتـي هنـاك فـي مخيمي الحبيب وهنا في بلد لجوء ثانٍ، والغريب أنّني في كلّ حلم أرى مخيم اليرموك خال من القصف، ولا أرى أيّ دمار حتّى بيتي بـأبهى مظهـر وأجملـه، والأغـرب مـن ذلـك أنّنـي كلّمـا ناديت أمي تسمعني، وحين تأتي لتلبّـي نـدائي أستيقظُ فـلا أراهـا، أو أكـون فـي طريقـي إليهـا فأصحو. ترى هل أنا اليوم في حلم سيدوم شهرًا ثمّ أستيقظُ، لأجدَها اختفت من جديد. ستمضـي الأيام، وستعود من حيث أتت. لا يهم، الآن هاهي أمّي كما عهدتها، انتظرتني حـين أنتهـي مـن استحمامي في آخر اللّيل.

- " رح أستناكي لتطلعي ".
- " أمّي حبيبتي، روحي نامي، لا تنطري، تصبحي على خير".
- " تلاقي الخير يا حبيبة قلبي ".

رحتُ أتفقّد الماء إذا سخنتْ، لأنعم بغسيل كلّ شوائب اليومين الفائتين، ولأذوّب جميـع الأفكـار البالية، وأغوص بفكرة وحيدة، لِمَ تنتظرني أمّـي حتّـى أخـرج؟، أمضـيْتُ وقتًـا طـويلًا وحـدي أمارس كلّ طقوسات الحياة، فلِمَ عليها أن تُتعب نفسها لتسهر من أجلي. حين خرجْـتُ، اقتربَـتْ من الباب حيث كنتُ أرتّبُ ما تبقى من الماء المتبقية على الأرض، وإذ بها تنظر إليّ طويلًا:

- "نعيماً"
- " الله ينعم عليكي، ليه ما نمتِ لهلأ؟ ".
- " كنت عم بستناكِ، بركي احتجتِ شي ".

- وفي أثناء انشغالي بالتّنظيف، تفاجئني بالقول: "هاتي بوسة الحمام"

يا لحماقتي! كيف لي أن أنسى قبلة ما بعد الحمام!، وكيف لي أن أجعل والدتي تنتظرني كلّ هذا الوقت؟، اقتربتُ وطبعَتْ تلك القبلة الّتي أعادتني طفلةً صغيرة تنتظر أن تتطاير ضفائرها بعد تسريحة شعرها، تلك الضّفائر السّود الّتي تتمايل على كتفي، انتظرتني كما انتظر محمود درويش حبيبته، لا أدري أيّة حبيبة منهنّ، لكنّي على يقين بأنّني الحبيبة الوحيدة في قلب أمي.

اليوم هو الثاني والعشرون من شهر كانون الأول من عام ألفين وتسعة عشر، أكمل قصّتي الّتي مزّقها اللّجوء وشتتتها الحرب. ربا هو اسمي الّذي أسمتني به أمّي، وجنسيتي الفلسطينية التي ورثتها من جدّي- رحمه الله- حين خرج من فلسطين في عام 48، كلّ ما أذكره هو صوره في بحيرة طبريا، وحديثه عن كيفيّة خروجه من فلسطين.

وأمّا عن محبّتي للبلد الذي وُلدتُ فيه، فقد نبعتْ من بيت جدي أبي عدنان -رحمه الله- الذي تُوفي قبل سنوات قليلة في أثناء الحرب البغيضة الّتي دمّرت وأحرقت بيوتنا وأحلامنا الصّغيرة. كنّا إذا ما دخلنا الصّالون الّذي يجتمع فيه أخوالي السّتّة، وخالاتي السّبعة، وثامنتهم أمّي، وأزواجهم ونحن الأحفاد، ترى خليطاً من الحبّ والضّحك والمزاح، فينقسم المكان إلى مجموعات صغيرة بحسب العمر، فيجلس الكبار على الأريكة الّتي تحيط بكلّ الصّالون، ويتبادلون أحاديثهم الاعتياديّة، وأما نحن فكنّا نلعب "بيت بيوت"، ونغوصُ في عوالمنا اللّامتناهية من المتعة والخيال.

اليوم، أحنّ إلى تفاصيلَ صغيرة، لو تعاد! أحنّ لحائط جدران في بيتنا البسيط، ولصوبية المازوت الّتي يلتفّ حولها كلّ أفراد عائلتي، لرائحة الخبز المحمّص مع البصل المشويّ، لصوت أبي حين يغنّي على ضوء شمعة بالكاد نرى من خلاله وجوهنا، ونستلذّ بأحاديثَ ودعاباتِ أخي الأصغر صالح، ومشاحنات لطيفة بين والديّ حين يبدأان بسرد قصص عن بطولات الماضي، ويتباهى كلّ منهما بمن له من المعجبين أكثر، وأمّا نحن فكنا نأخذ دور المحامي، لندافع بكلّ براءة عن أمّي، وينتهي شجارهما بقبلة يرسمها على جبينها قائلًا:

" ليش أنا إلي غيرك ياعروستي".

ربّما كان هناك دخلاء كثيرون في الحرب، لكنّني كنت أرى بأمّ عيني المعاملة السّيئة الّتي كان يتفنّن بها عناصر حواجز الجيش، كلّ عشرة أمتار من أيّ طريق. يسأل أحدهم طفلة ابن عمتي:

- أي أحلى بارودتي ولا بارودة بابا؟.
- بارودة بابا.

و لولا ستر الله على ابن عّمتي، وإقناع الجنديّ بأنّها مجرّد طفلة، وتحبّ والدها كثيرًا لكان ضاع في خبر كان. وهناك الكثير من القصص والرّوايات الّتي لا تعدّ ولا تحصى، وأقصد أنّهم من سرقوا بيوتنا وأحلامنا وألبومات صوري، حتّى الأسلاك الكهربائيّة تمّ اقتلاعها من الجدران، وغيرها من التّحف والمفروشات والأجهزة الالكترونية حتّى ثيابي القديمة كلّها سُرقت.

كم أحببتُ مكان طفولتي، حارة بيتي، غرفة الأسرار وسط الدّرج المؤدّي إلى بيتنا، وحب طفولتي، فارس أحلامي ابن عمتي خالد، الباب الخشبيّ والممرّ المطلّ على غرفة البنات الملتصقة بغرفة والدي. أشتاق لدفتر مذكّراتي العشوائيّ، لرسومات أمّي ومقالات أبي، أشتاق للمكان بكل تفاصيله، أشتاق للذّكريات الّتي يحملها، فالمكان لا قيمة له لولا ربطناه بنا، توقنا إلى تلك الذّكريات.

حلوة تلك الحياة الّتي جمعتني برغم ألمها وقسوتها بأحبةٍ وأهلٍ وأناسٍ صادقين، فكلّ ما كتبتُه في قصّتي الأولى في كتاب "11حكايات من اللجوء الفلسطيني" أو في كتاب "الهوية" من سيرة ذاتية، وما أكتبه هنا لا يشكل ذرّة واحدة ممّا يدور في ذهني من ذكرياتٍ، وأفكارٍ، ومشاهدَ تراودني، وتجعلني لا أستطيع روايتها اليوم كاملة للناس، ولعلّي لم أستطع نقل كلّ معاناة اللاجئين، لكنّي على الأقلّ أستطيع أن أكشفَ بعض خبايا هذا الزّمن. فالكتابة بالنّسبة لي متعة بحدّ ذاتها، وأيضاً لشعوري بأنّي أودّ أن يعرفها أولادي وأحفادي يومًا ما، سأقصّ لهم ما عشناه، لن أعلّمهم كيف يختارون طريقهم، لكنّي سأعلّمهم أنّ الابتسامةَ والإرادةَ هما السبيلان الوحيدان ليكونوا ما يريدون.

اليـــوم بالـــذات، هنـــا فـــي هـــذا البلـــد بعـــد وجـــودي القســـري فيـــه ســـبع ســـنوات كاملـــة منـــذ بدايـــة 2013 يســـاورني الشّـــكّ فـــيمن أكـــون، وأحـــاول معرفـــة ذاتـــي مـــن خـــلال تلـــك الوجـــوه حـــولي، فمـــنهم مـــن يبتســـم، ومـــنهم مـــن يعـــبس، ومـــنهم مـــن يحـــاول المراقبـــة مـــن بعيـــد، وأمّـــا عنـــي فـــإنّني تائهـــة بـــين الجميـــع، أحـــاول فقـــط معرفـــة مـــن أكـــون، أو بـــالأحرى لســـت تائهـــة إنّمـــا أرهقـــتُ فقـــط .

صـــوت طرقـــات ثـــواني السّـــاعة المرميـــة فـــوق وســـادتي بـــات يقلقنـــي، الوقـــت يمضـــي، والنّـــوم لا يريـــد أن يطـــرق بـــابي. تُـــرى متـــى تتوقّـــف تلـــك السّـــاعة عـــن العمـــل؟ أو هـــل يتوقّـــف الـــزّمن لثـــوان. لـــم يعـــد هنـــاك صـــباح لأســـتيقظ ولا ليـــل لأنـــام، النّـــوم واليقظـــة محطّتـــان فـــي عـــالم مختلـــف عنّـــي غيـــر الّـــذي أنـــا فيـــه اليـــوم.

صـــوت موســـيقى المونـــامور يشـــدّني لأحمـــل قلمـــي وأكتـــب كـــلّ مـــا بـــداخلي، لأكمـــل قصّـــتي الّتـــي كانـــت كـــلّ أحـــداثها حقيقيّـــة، فمـــن أرض اليرمـــوك حيـــث كانـــت مراهقتـــي علـــى حـــبّ فلســـطين، والعروبـــة إلـــى أن وصـــلت إلـــى حيـــث أنـــا الآن.

آه مـــن هـــذه الحيـــاة، لـــم تكـــن عادلـــة بقـــدر كـــافٍ، فهـــا أنـــا وحيـــدة هنـــا فـــي مدينـــة جنوبيـــة فـــي منـــزل ضـــخم ذي مـــدخلين، أســـمع ضـــجيجًا مـــن البـــاب الأمـــامي للمنـــزل حيـــث المصـــعد والجيـــران ينزلـــون ويخرجـــون صـــباحًا لا أدري إلـــى أيـــن؟ وأحاديـــث تجمعهـــم، وأســـرارًا يطرحونهـــا فيمـــا بيـــنهم وبينـــي، دون أن يـــدروا، وأصـــوات المحتـــاجين والمتســـولين الّـــذين يطرقـــون بـــاب شـــيخ فـــوق بيتـــي مباشـــرة، الّـــذي لا يـــردّ أيّ ســـائل، لقـــد جعلنـــي أعيـــد النّظـــر فـــي مســـألة التّعمـــيم أنّ كلّ الشّيوخِ كاذبون، وأنّهم استعملوا الدّين ذريعة لهم للوصول إلى مبتغاهم.

أمّـــا مـــن البـــاب الخلفـــي لهـــذا البيـــت، فقـــد كنـــت أســـمع أصـــواتًا خفيفـــة أعتقـــد أنّهـــا مشـــية أقـــدام، فأتخيّـــل أن هنـــاك مجرمًـــا ســـوف يقـــتحم المنـــزل ليقتلنـــي وينـــال منّـــي. وحيـــدة أعـــانق هـــذا الـــدّبّ الكبيـــر، دبّ فـــرح، وأحـــاول أن أغلـــق عينـــيّ لأتـــذكّر أيّ

شـــيء جميـــل لأنـــام، أحـــاول أن أتـــذكّر الشّـــعور ذاتـــه حـــين عـــانقتني قبـــل أربـــع سـنوات، كانـت يـداها صــغيرتين جـدًا، لكـن محبّتهـا لـي كانـت أكبـر مـن حجمهـا، فلطالمــا احتضــنتني، وشــدّتْ كفّيهــا علــى وجهــي، فأجــد فــي عينيهــا دفئًــا وحبًّــا لا متناهيان.

بــدأت تخــتلط أفكــار الخــوف مــن ذاك المجــرم الــوهميّ الّــذي يجــول فــي خــاطري وبـين أفكـار الحـبّ والشّـوق. فكّـرت كثيـرًا فـي الله عـز وجـل، ولطالمـا حدّثْتُـه، وسـألته عـن سـبب بقـائي هنـا وحيـدة فـي لبنـان، خيـال فـرح يمتـدّ لكـلّ مشـهد أو فكــرة تراودنــي، حتّــى موســى ابــن حنــين أحيانًــا أخطــئ فأناديــه فــرح أو كــرم، أتـذكر زمـلاء العمـل، أبـي، أمـي، أشـتاق لأخـوتي، لأتفـه الأشـياء فـي مخيّمنـا، لصـلوات أبـي الّـذي يتهلّـل إلـى الله فـي هـذه السّـاعة مـن كـلّ ليلـة فقـط ليـدعو أن يلـتمّ شـملنا، لشـجاري مـع إخـوتي علـى ترتيـب المنـزل، لنصـائح أمّـي حـول الصّـلاة وحفـظ القـرءان، أشـتاق لكـرم حفيـدنا الأوّل، ولسـلام الّتـي كانـت تتعلّـق بقـدمي لكـي أصـطحبها معـي فـي أيّـة زيـارة أقـوم بهـا، أشـتاق لصـالح وصـدى صــوته فــي حارتنــا حــين يبيــع الصّــبّارة، ولمحمّــد بــدر المنهمــك فــي عمــل المجسّـمات الصّـغيرة فـي دراسـته الهندسـيّة، ولسـارة الّتـي كانـت مولعـة بقـراءة كتــب الألغــاز والأفــلام الاجنبيّــة حيــث كانــت تقــوم بترتيــب جــوٍّ رومانســيٍّ، فتطفــئ الأنــوار، وتشــتري مــا لــذّ مــن المكسّــرات، والشّــوكولا والبســكويت، نجتمــع كلنــا فــي الصــالون لحضــور ذاك الفــيلم، أمّــي ونهيــل، وأنــا وســارة، وهــزار، ومحمــد بــدر، وســلام، وصــالح، وحــين نســمع صــوت بــاب المنــزل الحديديّ يفتح آخر الليل نسارع مغنيين بأعلى صوتنا:

" اجا البوباني هي " .

وهــذا كلّــه كــان احتفــالًا بعــودة والــدي، ولمــا يحملــه لنــا مــن المــأكولات اللّذيــذة، لكنّنــا لا نســتطيع إكمــال الفــيلم إلّا بمحــاولات كثيــرة ومســاومات مــع والــدي الّـذي يحـين دوره فـي اسـتلام مهمّـة قيـادة التّلفـاز، والخـوض فـي غمـار الأخبـار

حيث كان لا يفوّت أيّ خبر سواء في داخل فلسطين المحتلة، أو الأخبار المحليّة في الوطن العربيّ أو الدّوليّة، وكنّا طوال الوقت نسمع تعليقاته وانتقاداته وتحليله للأخبار ومدى صحّتها.

لربّما لم أكن أشعر بمَ تعني كلمة لاجئ في بلد اللجوء الأول مع أنّني ولدت في بيئة ثوريّة ومثقّفة، فوالدي لديه إجازة جامعيّة في الآداب وعلم النفس، وما من حديث يدور إلّا وكانت له مشاركة فعّالة به أينما كان، وأمّي الّتي كانت تُعلُم في مدرسة ابتدائيّة، حيثُ كانت صارمة وحنونة في الوقتِ نفسه، والتي ورثتُ منها الحنّيّة والإخلاص للرّسالة السّامية للمعلّم، فكنتُ أذكر كلماتها المشهورة الّتي تردّدها في أوّل كلّ عام لطلّابها حيث كنت واحدة منهم في الأوّل الابتدائيّ في مدرسة حكوميّة " سعد الدّين القوّاص الرّفاعي " قبل أن أنتقل إلى مدارس الأنروا:

" العلم هو ما يفيدكم في الكِبر، حتّى من أراد أن يترك المدرسة يجب عليه النّجاح شاء أم أبى، ويأّخذ شهادة التّعليم الأساسيّ على الأقل وبعدها يفعل ما يريد، على الأقل تستطيعون القراءة والكتابة " .

كان آنذاك الكثير من التلاميذ في هذا البلد يتركون العلم من أجل تعلّم مصلحة ذويهم، فكانوا لا يكترثون للشّهادات الجامعيّة، بعكسنا تمامًا، فالعبارة الّتي تتردّد في ذهني دائمًا منذ طفولتي:

"نحن الفلسطينيون لن نأخذَ معنا سوى العلم".

أذكر أنّ نسبة الفلسطينيين المتعلّمين هي المرتفعة دائماً في العالم، لا أقصد المبالغة، لكنّي أردت التّعبير عن عدم ملكيّتنا لأيّ شيء أينما رحلنا سوى ما تجنيه عقولنا، وعلى تعبير قرأته ذات مرّة:

" لو فتّشوا عقلي لصادروه ".

آه من عقلي الممتلئ، والذي لم يعد يتّسع للمزيد من الذّكريات، وهذا محزن بالنّسبة لي، ولكن كلّ من حولي يحسدني على نعمة النسيان، فها أنا لا

أستطيع تخزين أي شيء منذ 9 سنوات أو أكثر إلّا ما رحم ربي من ذكريات مؤلمة وقاسية. بدا الأمرُ مقلقًا بالنّسبة لي، فها أنا أستطيع تذكّر أمورٍ صغيرةٍ حصلتْ معي في الرّوضة، وتفاصيل صغيرة في المرحلة الابتدائيّة، لكنّي لا أستطيع تذكُر أمورٍ جميلة وأناس لطفاء قابلتهم في مرحلة شبابي، راجعتُ عدة أطباء لهذا الأمر، أحدهم أخبرني بأنّني تعرّضتُ لصدمة، ومنذ تاريخها بدأ عقلي يرفض تذكّر أيّ شيء وأنّني ربّما سأعيش كلّ يوم بيومه، ولم يستغرب حين أخبرته بعض المواقف، فمرّة حين سجلّتُ دورة محاسبة، دفعتُ قسط الدّورة إلى السّكرتيرة هناك خلف مكتبها وإذ بها تكتب لي وصلًا بالنّقود:

"اسمك؟"

نسيتُ اسمي، فتحتُ أوّل صفحة من دفتر مذكّراتي لأقرأ اسمي، وإذ بها تضحك وتقول:

"نيال يلي شاغل بالك".

كان الأمر مؤلمًا، وليس مضحكًا أبدًا، ولكن لِمَ عليّ أن أتذكّر الأشياء اللّطيفة إن كانت ستمتزجُ بذكريات الوحدة والغربة والوداعات المتتالية، والأشواق.

أجل قلبي المشتاق لكلّ شيء، لقهوة أم بلال، فقد كانت أشهى قهوة تذوّقتها في لبنان. أم بلال هي أم لأربعة أولاد، حنين الصديقة والأخت، وبلال الّذي يسارع في تقديم أول فنجان لي من الرّكوة، لأنّني أحبّ أن أتفنّن في الرّسم على وجهه، وحمزة وأيهم الصّغير الّذي طالما حدّثني بأنّه عندما يصير أبًا سيسمّي أطفاله "ربا وصالح" تيمنًا بي وبشقيقي الحبيب، وأبو بلال الذي اعتبرني ابنته الثانية، فكان يتفقدني في غيابي عنهم. كم أعشق هذه العائلة الّتي لطالما احتضنتني وعرّفتني بحقيقتي البسطية وطبيعتي. بيتهم الّذي استأجروه في مخيم جنوبي مؤلّف من غرفتين، ومطبخ صغير يطلّ على الغرفة الّتي نجلس فيها مباشرة، فأتأمّل أم بلال وهي تقوم بإعداد القهوة،

فرائحتهــا الذّكيــة تبعــث فـــي نفســي الطُمأنينـــة لـــذكريات عـــائلتي الدّافئـــة، وكـــذلك وقـــت إعـــداد الطّبخـــات الّتـــي كانـــت تشـــبه بوقفتهـــا أمّـــي الحبيبـــة، وهـــي منهمكـــة فـــي صـــنع مـــا لـــذّ وطـــاب مـــن المـــأكولات لأولادهـــا وزوجهـــا، كيـــف لا وقـــد كـــان أبـــو بـــلال يعمـــل طـــوال النّهـــار تحـــت أشـــعّة الشّـــمس الحارقـــة فـــي البنـــاء، والعمـــار، وحمـــل الحديـــد، وصـــبّ البـــاطون، ورفـــع الحجـــارة، والرّمـــل ونقلـــه فـــي أيّـــام الصّـــيف الحارقـــة، وأمّـــا عـــن الشّـــتاء فحـــدّث ولا حـــرج حيـــث البـــرد والعواصـــف، كمـــا تـــرى بـــين هـــؤلاء الرّجـــال طفـــلًا اســـمرَّ وجهُـــه، ولاحـــت ملامـــح البـــراءة والبشاشـــة علـــى وجهـــه الطفـــولي البـــريء، بجســـده الصّـــغير المتناســـق الّـــذي يبهـــر بحركاتـــه المتناســـقة علـــى خشـــبة المســـارح فـــي صـــيدا، ذاك الطّفـــل الّـــذي لـــم يبلـــغِ الرابعـــة عشـــرة مـــن عمـــره، حيـــث شـــاءت الظّـــروف أن تجعلـــه يعمـــل مـــع والـــده فـــي ذاك العمـــل القاســـي فقـــط لأنّـــه لاجـــئ، ولأنـــه لـــم يســـتطع كأقرانـــه التّـــأقلم فـــي المـــدارس هـــذا البلـــد التـــي تمتـــاز بالاهتمـــام باللّغـــة الإنكليزيّـــة. نعـــم لقـــد حـــاول بـــلال مـــرارًا إقنـــاع والديـــه بـــذلك، مـــن أجـــل إكمـــال تعليمـــه بعـــد أن درس عامًـــا كـــاملًا فـــي معهـــدٍ لتعلـــيم اليـــافعين القـــادمين مـــن بلـــد اللجـــوء منهاجـــه، حيـــث كنـــتُ أعلّـــم مـــادّة اللّغـــة العربيّـــة، وقـــد أقنـــع مـــدير المعهـــد أبـــا بـــلال وغيـــره مـــن الآبـــاء بـــأنّ كـــل مـــن يرســـل ابنـــه إلـــى هنـــاك ســـيكلفه ذلـــك أكثـــر مـــن ألـــف دولار، وأنّ هنـــاك خوفًـــا كبيـــرًا علـــيهم مـــن التّجنيـــد، أو الحجـــز، أو حـــالات الخطـــف، وغيرهـــا مـــن الأمـــور، لـــذا شـــاء القـــدر أن يبقـــى بـــلال وحيـــدًا متعبًـــا مـــن كثـــرة القـــرارات الزائفـــة، الّتي لم يكن لها أساس من الصّحة.

مـــن حســـن حظّـــي أنّنـــي اســـتطعت أن أحـــوّل اللغـــة العربيّـــة إلـــى مـــادّة محببـــة فـــي قلـــوبهم، فقـــد كـــان تلاميـــذي ينتظـــرون حصّـــتي بفـــارغ الصّـــبر، فأســـمع عبـــارات التّرحيـــب، والأغـــاني، والعناقـــات البريئـــة مـــن بنـــاتي الحبيبـــات، وضـــحكات، وهمســـات فـــي صـــفّ الصّـــبيان، لقـــد أحببـــتهم وأحببـــت طفـــولتهم الّتـــي قهرتهـــا الحـــرب ودمّرتهـــا يـــد الحقـــد. لقـــد كنـــت أمشـــي فـــي الشّـــارع وحـــولي الكثيـــر مـــن

الطّلاب، يتسارعون لحمل حقيبتي، حتّى أصل إلى منزلي، كنت أحب ذاك الشّغف فيهم للحياة، ومع أنّني كنت أكره مهنة التّعليم، استطعت استخدام الطّرق الحديثة، فكنّا نغني القصيدة، ونلحّنها، ونتناقش في قضايا تهمّهم. كنّا نرسمُ حين يريدون، ونزور بعضنا في البيوت، وأتعرّف على عائلاتهم، ونقوم بعمل ورشات عمل حول التأقلم، وحلّ النّزاع والاندماج وفهم الآخر. كلّ ذلك جعلني قريبة منهم، كان زملائي من المعلمين\ات يتساءلون دائمًا لماذا لا أطرد أي طالب في حصتي؟، فأجيب: " ليس هناك ما يزعجني فيهم، فلماذا أقوم بطردهم؟".

فأجدهم يتهامسون من حولي عن كيفية ضبطي لأكثر من 25 صبيًّا أو بنتًا في كلّ صفٍّ، فأقاطعهم هامسة في آذانهم: "أحبّوهم بصدق، وعلّموهم من أجل رسالتكم التّعليمية، وليس من أجل المال". فكانوا حينها يعتبرونني من عصر آخر، ويلومونني على طرقي في التّعامل معهم، بحجّة أنّني أشجعهم على عدم احترام المعلّم بسبب صداقتي لهم.

لقد كان لكلّ واحد منهم محبّته الخاصّة والمختلفة عن الآخر. ولكن بلال حظي بالاهتمام الأكبر، فقد كان في كلّ يوم ينتظر مروري بجانب ورشة البناء الّتي يعمل بها مع والده، فيختبئ خجلاً من أن أراه بلباسه الملطّخ بغبار التّعب، الّذي مزّقته يد اللّجوء وحرقة الاستغلال، فكيف للمهندس أو ربّ العمل أن يسمح بعمل طفل لم تكتمل بنيته الجسديّة؟ كان يحلم بأن يكون في صفوف المدرسة الإعدادية كبقية الأطفال الذين كان يراقبهم حين يمرون من أمامه، وهو يحمل أكياس الرّمل إلى الطّوابق المرتفعة، فكيف له أن يحدّثني عن مسمارٍ دخل إلى كفّه الصّغير، وما كان من المهندس الّذي يعمل معه إلا أخذه إلى الصّيدليّة المجاورة لتوفير بعض المبالغ من أخذه إلى مشفى؟ كيف لحديثه الطّفوليّ أن يتحوّل إلى رجل كهلٍ عن كيفيّة كسب الرزق، لكي يكفيه في سدّ احتياجاته، من لباس جديد وما يستطيع به

أن يشتري قطعًا من الحلوى، وحتّى إذا حلم بشراء هاتف محمول، لم يكن يحلم بشراء خط هاتف ليضعه فيه.
بعد عدة محاولات استطعتُ إقناعه بأنّني أحبّ أن أراه وأسلّم عليه إذا مررت به، في طريقي إلى عملي الجديد بعد أن دبّر لي مدير المعهد الذي كنتُ أعمل به مكيدة لكي يتخلّص منّي في معهده المهترئ، صاحب الأفكار البالية. لم أستطع أن أُطالب بأجرٍ كبير عن عملي الّذي أعطيه لهؤلاء التّلاميذ، وكلّ ذلك كان يبعث في قلبي حبًّا لتلك الرّسالة السّامية. لا أعرف إن كنت استطيع ذكر اسمه، لأنّني لا أقصد التّشهير أبدًا، لكنّي وددت أن أنقل دموعي الّتي ذرفتها حين دخلت إلى المعهد في المخيم، ووجدت المديرين: أبو حسين وخير الدين مجتمعين، سلّمتُ وهممت بدخول صفي، وإذ بأحدهم يخبرني بأنّه يريد التّحدث معي، حينها سارع أبو حسين بالمغادرة، ودار حوار كبير بيننا عن الإجازة الّتي أخذتها لحضور ورشة عمل عن حقوق الإنسان بعد أن أحضرت بديلًا عنّي، وكان اتّهامه لي بأنّني تغيّبتُ دون علمه، المضحك في الأمر أنّه لدي دليل كبير على طلبي للإجازة بشكل رسمي من كلا المديريْن.
غادرتُ وقتها المعهد، مكسورة الخاطر من هول الخبر، ولم أستطيع منع نفسي من البكاء، فالتّهمة الّتي ألصقوها بي كانت حجّة لطردي بعد تطوعي معهم لثلاث سنوات، وأما عن ذاك الأجر البخس الّذي كنت أتقاضاه هو 200 دولار فقط، ولم يكن مهماً لي لأنّني استطعتُ من خلال معاشرتي للّاجئين أن أنجوَ بنفسي من صدمة احتجازي على المصنع، نقطة الحدود بين البلدين.
كان ذلك في كانون الثاني 2013 حين قرّرنا اللحاق بوالدي ومحمد بعد مغادرتهما بلد الحرب في أواخر 2012 بحيث نجوا من القصف العدوانيّ على مخيمنا، مشهد التّغريبة الفلسطينية في عام 48 يعاد ذاته، أناس من كلّ

الحـــارات متفـــرّقين ومجتمعـــين، يحملـــون صـــرّة ثيـــاب، أم أضـــاعت ابنهـــا، حشـــود تتوافـــد مـــن كـــل فـــجّ عميـــق، ســـاحة البطيخـــة ممتلئـــة، وجـــوه مكفهـــرة غاضـــبة وخائفـــة، قصـــف عشـــوائي، إطلاقـــات نـــار متفرقـــة، إنـــذارات بـــإخلاء المخـــيم خـــلال يـــومين، افترشـــت تلـــك الســـاحة الواقعـــة فـــي مـــدخل المخـــيم بالنـــاس المنتظـــرين، مـــنهم مـــن ذهـــب إلـــى قريـــب فـــي العاصـــمة أو غيرهـــا، ومـــنهم مـــن بقـــي، لربمـــا كنّـــا نتوقّـــع بأنّهـــا مجـــرد ســـاعات وســـنعود، خرجنـــا اليـــوم حـــاملين مفـــاتيح بيوتنـــا فـــي المخـــيّم كمـــا حمـــل جـــدي أبـــو علـــي مفاتيحـــه قبـــل ســـبعين ســـنة من طبريا، ولوكان على قيد الحياةً لما خرج منه اليوم.

انتظرنـــا شـــهرًا كـــاملًا، والأوضـــاع تـــزداد ســـوءًا، كنـــت أتســـلل وأختـــي هـــزار إلـــى مـــداخل اليرمـــوك لنـــرى بيتنـــا، حيـــث كـــان نقطـــة تمـــاس بـــين الجـــيش والمعارضـــة، فـــإذا مـــا كنّـــا علـــى الطـــرف الأول ســـارع لإنـــذارنا مـــن خطـــر الثّـــاني والعـــودة مـــن حيـــث كنـــا، وكـــذلك العكـــس، غيـــر أنّ الأمـــور بـــدأت تـــزداد ســـوءًا عنـــدما أقـــاموا حـــاجزاً عنـــد مـــدخل المخـــيم، فكـــان يقـــف هنـــاك جنـــود يطلبـــون بـــازدراء الوقـــوف ممّـــن يريـــد الـــدّخول بصـــفّين للرّجـــال والنّســـاء، وتبـــدأ عمليّـــة التّفتـــيش ، فكـــل مـــن يحمـــل ربطـــة خبـــز أو أكثـــر مـــن طعـــام يكفيـــه ليـــوم واحـــد، يُهـــان ويُضـــرب ويؤخـــذ منـــه، متهمـــين إيّـــاهم بـــأنّهم يعطونـــه للجهـــة الخصـــم. توسّـــلت الختيـــارة العســـكري لإدخالهـــا أكثـــر مـــن ربطـــة خبـــز، فمـــا كـــان منـــه إلّا أن ضـــربها بكعـــب بارودتـــه الّتـــي كـــان يحملهـــا، وإذا انـــتفضَ أيُّ شـــابٍّ بتكـــون راحـــت عليـــه. اقتربْـــتُ وشـــقيقتي مـــن الحجّـــة ورفعناهـــا عـــن الأرض، فطلبـــتْ منّـــا حمـــل ربطـــة الخبـــز علمًا أنّنا في هذه المرّة لم نكن ننوي الدخول إلى المخيّم.

عيـــون ثاقبـــة فـــي كـــل مكـــان، رجـــل مغطـــى رأســـه بقمـــاش أســـود مثقـــوب عنـــد العينـــيْن فقـــط. فـــي كـــلّ عشـــر دقـــائق يشـــير إلـــى أحـــد مـــا، فيـــنقضّ عليـــه عســـكريٌّ، ويجـــرّه إلـــى ســـيّارة مركونـــة علـــى الجانـــب، علـــى الأغلـــب أنّـــه مخبـــر أي (عـــوايني) باللّهجـــة الشـــعبية، يتهـــامس النـــاس مـــن حولنـــا: "هـــالحقير هـــاد أكيـــد مـــن

ولاد المخـيم، بـس بقولـوا أنـه مجبـور يـدل علـى أي حـدا، سـمعت إنـه ابـن أم محمـد موقفينـه معـاهن أول مبـارح وقايلينلـه إذا مـا بتـدلنا مـين حامـل سـلاح رح نقتلـك، إيـه الله بعـين، ماعـد عرفنـا مـين بـدنا نصـدق" . توقّفـتِ الهمسـاتُ حـين صرخ أحد الجنود بالناس: " وقفوا بالدور".

وهكـذا بقـي الحـال علـى مـدار شـهر تقريبًـا، ولـم يعـد يُسـمح لأي أحـد بالـدخول أو الخـروج مـن المخـيّم، وحوصـر مـن كـلّ الأطـراف. فـي الـداخل تقبـع الجهـة المعارضـة، التـي بـدأت تأخـذ تسـمياتٍ مختلفـة ومتنوعـة، فبعضـهم مـن اتّخـذَ مـن الإسـلام ذريعـة، ليطبّـق شـريعته باغتصـاب النّسـاء، وقطـع الـرّؤوس، وتخميـر البنـات، وغيرهـا مـن الأمـور الّتـي كنّـا نسـمعها فـي الأحاديـث التـي كانـت تأتينـا مـن الأهـالي الّـذين بقـوا فـي المخـيم، والقصـف يشـتد مـن جهـة أخـرى، ومـش رايحـة غيـر علـى أهالينـا يلـي مـا رضـيوا يتركـوا بيـوتهم، يلـي صـمدوا، ويلـي جـاعوا، ومـا لقـوا لقمـة ياكلوهـا خـلال سـبع سـنين، يلـي اتهمهـن كـل العـالم أنـه انضـموا للمعارضـة ويلـي صـار اسـمها (داعـش)، شـو بـدو يحكـي الواحـد ليحكـي، وجـع علـى تجويـع، علـى فـراق وتشـتيت للعيلـة الوحـدة، علـى النـاس يلـي فكـرت أنـه طـالعين كـم يـوم وراجعـين. مـين كـان مفكـر أنـه اليرمـوك بيـوم مـن الأيـام ينهـد وينحـرق وينـزل عليـه براميـل، ابـن عمتـي مـات بشـظية، وغيره من أقربائي المصاب والمهاجر والمحاصر.

نحـن الفلسـطينيون كنّـا نحـاول البقـاء علـى الحيـاد، كنّـا نريـد السّـلام للجميـع فـنحن ضـيوف فـي هـذا البلـد، وعلـى الـرغم مـن تـدخّل بعضـنا فهـذا لا يعنـي أنّنـا راضـون. كـان وقتهـا كـلّ شـباب حارتنـا يسـهرون للحراسـة، لمنـع المتظـاهرين من دخولها، ففي كلّ منطقة طولب فيها بالحريّة، انقلبت إلى جحيم.

اسـتقبلنا الكثيـر مـن النـازحين، مـن الأريـاف، والمحافظـات المجـاورة، فسـكنوا فـي مدارسـنا (الأنـروا) وكـان شـعار شـبابنا (لا دراسـة لأولادنـا، وهنـاك أنـاس لا يعرفـون إلـى أيـن سـيرحلون إن أخرجنـاهم مـن المـدارس) وللأسـف حـين

قصف مخيمنا، اتّجه الناس إلى أقرب منطقة عليه (الزاهرة)، وطلب أحد الفلسطينيين من مديرة مدرسة لتلاميذ سوريين أن يجلسوا فيها لبينما يهدأ الوضع، فرفضت مديرة المدرسة، صُدمتُ وقتها، ولكن أحد الجيران نزل من بيته، ليقف معنا ويشتم تلك المديرة قائلًا:

"ياعيب الشّوم عليك، لقد فتحوا لنا مدارسهم وعطّلوا أولادهم، وهلأ إنتِ عم تسكريها بوجههم، ادفشوا الباب معي ياجماعة".

وفعلاً دخل الفلسطينيون إلى المدرسة رغمًا عنها. لا أدري ماذا حصل بعدها، لأنّنا رحلنا إلى بلد آخر بعد موت مخيمنا. لم نكن نعرف أحداً، خوف وخنق ووقت طويل نمضيه متأمّلين البحر من شرفة المنزل الذي استأجرناه في الشّرحبيل. مضت عشرة أيام والشّوق لذاك البلد يخنقنا، اتفقتُ وأختي هزار في إحدى الليالي على العودة إليها غير مدركين خطورة ما قررناه، وطلبنا من والدي الإذن، الذي بدوره لم يوافق كليًّا على هكذا أمر، عدنا إليها حاملين أشواقنا ودموعنا فرحاً، فعلى الرغم من حربها ودمارها غير أنّها تبقى أجمل من هنا مع تلك العنصرية القاتلة، خاصة حينما ينادوننا بغير جنسيتنا، (ياعمي إحنا فلسطينية افهموا، مش من حق أي حدا ينفي عني جنسيتي الأصلية)، وهكذا قضينا عشرة أيام بالضّبط ، كانت كفيلة بشحنة أمل صغيرة للعودة إلى المنفى، وكانت باطلة ومحوّلة هالنزلة.

كان لبنان البلد العربي الوحيد الذي استقبلنا من دون استخدام وثيقة سفر، فقد سهّل التّعامل معنا في بداية الأمر، لكن حين توافد الكثيرون من جنسيات مختلفة، بدأت الإجراءات الّتي تعيق تواجدنا فيه. أمّا عنّي، فقد استطعت أن أسوّي وضعي بعد سنتين من دخولي خلسة ، استغرب ضابط الأمن لجرأتي قائلًا:

- مانك خايفة أنك جاية تهريب؟.

- أكيد مش خايفة، لأنو أنتو فتحتوا باب التسوية.
- مين بخوف نحن ولا هن
- أكيد هن.

يضحك الضّابط مناديًا أحد العناصر، ليساعدني في الإجراءات، ناصحًا بأن أبقى قويّة جريئة مهما حصل معي، بعد أن قصصتُ عليه ما حصل معي بالتّفصيل.

كلّ ما في الأمر أن هناك فتاة تطابق اسمها مع اسمي حين انتهتْ زيارتنا وصلنا إلى جديدة يابوس، النّقطة الحدوديّة الّتي تفصل البلدين عن بعضهما، وقفنا في طابور ليس بكبير، أخذ وثيقة سفر هزار وختمه بالمغادرة، لكن حين استلم وثيقتي نظر إليّ وإلى حاسوبه، وعاود النّظر إليّ عدّة مرات، أحسست وقتها أنّ هناك خطبًا ما، طلب منّي موظف الأمن عدم المغادرة والانتظار، وقتها سارعتُ للاتصال بقريبي، وأعطيتُ هاتفي المحمول لأختي، وأمرتها بالمغادرة إلى بلد مجاور بعد عنادها بالبقاء بقربي لخوفها عليّ، كان أكبر همّي ألّا يصيبها مكروه، وألّا تُفجع أمّي بابنتين معًا. اصطحبني رجل أمن إلى خلف الزّجاج، وهو مكان يملأه عناصر الأمن وبعض الموقوفين. لم أعد أستطيع التّركيز بعد أن سألت ذاك البشع الضخم الملامح:

- "بدي أعرف ليه محتجزيني ؟"
- "إنتي بالذّات تهمتك إعدام". ساخرًا.

لم أعد أستطيع استيعاب أيّ شيء، شاهدت شابًّا في العشرينات، يضربه بظهر كفّه متّهمًا إيّاه بالمتاجرة بالمخدرات في الجامعة، ترى أيّة جامعة، وما اسم ذاك الشاب؟، وهل ستعرف والدته أنهم احتجزوه؟، وهل هو حقًّا يتاجر بالمخدرات؟ أخذوا كلّ أوراقه وأغراضه من جيبه، ووضعوها في ظرف بنيٍّ، هنا حاولت استراق النّظر لعلّي أخبر أهله بأنّي التقيته هنا كي

يبحثــوا عنـــه إذا خرجــتُ ســالمة طبعًـــا، لكـــن بعـــد أن جـــاء ردّ ذاك لـــي بإعـــدامي، وقعــتُ علـــى أريكـــة خلفـــي محشـــوّة بإســـفنج مهتـــرئ مـــن كثـــرة الموقـــوفين ربّمـــا، فكـــلّ مـــا كنـــت أراه وقتهـــا دمـــوع أمّـــي ودعـــاء أبـــي، وأفكـــارًا غبيّـــة تراودنـــي بـــأنّ دوري ســـيقترب وسيضـــربني، وسيضـــع أصـــفادًا حديديّـــة بيـــديّ الصّـــغيرتين. انقطـــع الكـــابوس بصـــوت أنثـــى خـــارج هـــذا المكـــان، إنّـــه صـــراخ هـــزار أختـــي المناضـــلة الّتـــي أعـــادت لـــي الـــرّوح بأنّهـــا لـــم ترحـــل وتتركنـــي وحيـــدة، دخلـــتْ برغم أنوفهم جميعًا لتراني.

- "كيف بتفوتي لهون؟"
- "مـــا خصـــك أنـــتَ بـــدي أعـــرف ليـــه حـــاجزين أختـــي؟"، وطلبـــت منـــه أن يتحدّث على هاتفها مع قريبنا الصحفيّ.
- "أنـــا مـــا بحكـــي مـــع حـــدى بصـــفة غيـــر رســـمية، علـــى كـــلّ حـــال نـــص ساعة منطلعلكن إياها".

أكملـــوا تحقـــيقهم معـــي، فـــتح عســـكريٌّ مجلّـــدًا ضـــخمًا ســـميكًا، وســـألني عـــن أمـــور لســـت فقيهـــة فيهـــا، عـــن أســـماء عمـــاتي، وخـــالاتي وأزواجهـــن، ومـــاذا يعملـــون، أيـــن يســـكنون، أرقـــام هـــواتفهم. لِـــمَ علـــيّ أن أحفـــظ كـــلّ هـــذه المعلومـــات؟ أجبتـــه بقـــدر مـــا أعـــرف، مصـــطحبة أجـــوبتي بشـــحوب وجهـــي، وطرقـــات قلبـــي الّتـــي لا تتوقّـــف عـــن الهـــذيان، فمـــرّة تخـــبط جـــدران رئتـــيّ، ومـــرة تلتـــزم مكانهـــا المعتـــاد. لـــم أعـــد أذكـــر كـــلّ التّفاصـــيل، ولكـــن أذكـــر ذاك المحقّـــق الّـــذي تغاضـــى عـــن بعـــض الإجابات، قائلًا لذاك الرجل:

" سيدي موهي البنت يلي عم ندور عليها".

قـــاطع كلامـــه نـــداءات بعـــض رجـــال الأمـــن المـــارين مـــن تلـــك الغرفـــة الضّـــخمة: "وأخيراً لقطتوها لربا، والله صار عنا بنات تكليف".

لا أعـــرف معنـــى هـــذا المصـــطلح، ولكنّـــي عرفـــتُ أنّهـــم كـــانوا يحـــاولون بـــثّ الخوف والرعب في قلبي. ناداني وقتها مرّة أخرى بعد حديثه مع أختي:

- ضربناكي شي؟ قربنا عليكي شي؟.
- لا.
- لكن ليش خايفة؟ على كلّ حال كنّا حابين نخدمك، ونوفر عليكي أجرة الطريق وناخدك على الفرع، بس يبدو أنك حابة تروحي لحالك".

أعطوني قصاصة ورقة غير رسمية مكتوب عليها رقم وتاريخ وتحتها "فرع الأمن السّياسي بريف العاصمة".

عدت أدراجي من حيث أتيت بعد أن غادرتْ هزار إلى لبنان. بقيتُ ثلاثة أشهر حبيسة منزل ابن عمي عماد، ومنزل خالتي أم علاء الّتي أحسنت معاملتي، فكانت وخالاتي أحنّهم عليّ، وجدي أبو -عدنان رحمه الله- الّذي كان آخر النّاس الّذين التقيتهم قبل قراري بالخروج من البلد بشكل غير نظامي، وإلى الآن لم أدرك كيف استطعتُ تحمّل ضغط خروجي بهذا الشّكل، فمدّة السّفر كانت 12 ساعة أو أكثر، لكثرة حواجز الجيش السّوري ومزاجيّته، فالطّريق الّذي سلكته كان يمرّ من مكان احتجازي ذاته، وفي كلّ نقطة تفتيش ينزل شبّاك سيارة الأجرة، فينظر إلي بتمعّن، فيخرج السّائق، ويتحدّث إليه، ويضع له شيئًا ما بيده، فيبتسم ونمضي في طريقنا. آلاف الأوهام تدور في ذهني، ربّما سيراني ذاك البشع أو ربّما سيحتجزني، لكن هذه المرّة وحيدة، كيف سأقابل أمّي إذ كنت سببًا في حزنها. ترى لِمَ كانت تلك الفتاة تحمل اسم والديّ؟ أم أنّ هناك مَن أراد بي شرًّا، ولماذا لا يعرفون أنّني لم أكن مجرمة؟ ولِمَ عليّ أن أراجع فرعًا للأمن إذا لم أكن مذنبة؟ وآلاف القصص والرّوايات عن رجال وأطفال وشيوخ فقدوا، وعن سيدات وصبايا اغتصبنَ في مقرّاتهم، لم أعرف حتّى الآن ما معنى تلك الورقة، ولا أريد أن أعرف، بعد أن سمعت صوت السائق يقول:

"الحمد لله، وصلتي بالسلامة ".

لــم أســتوعب مـــا قالـــه، التفــتّ حـــولي، فعـــلًا أنـــا فـــي لبنـــان لقـــد وصـــلت. لـــم تســـعني الفرحـــــة الممزوجــــة بــــالألم والشّـــوق لحضــــن العائلـــــة، وددت وقتهــــا الوصـــــول ســـــريعًا إلـــى حيـــث عــــائلتي، فــــأخبرتُ أختــــي الّتــــي كانــــت علــــى علــــمٍ بمجيئي.غربــت الشّــمس، وتوقّفــت ســيّارة الأجــرة فـــي العاصـــمة تحــت جســـر الكـــولا. أعطيــتُ الســـائق أجـــره البـــاهظ مـــن دون أنْ أناقشـــه، وصـــعدتُ إلـــى بـــاصٍ كبيـــرٍ متجهـــاً إلـــى الجنـــوب مباشـــرة، حـــين وصـــلت إلـــى ســـاحة النّجمـــة آخـــر موقف للباص وجدت الكثيرين من السّائقين يسألونني عن اسمي:

"هل أنت ربا؟"، "نعم"، باستغراب.

وقتهـــا ســـمعت صـــوتًا أعرفـــه جيّـــدًا " الله أكبـــر، الله أكبـــر". التفــتُ وإذ برجـــل غطّـــى الشّـــيب رأســـه ولحيتـــه، ودموعـــه تنهـــال علـــى وجنتيـــه، باســـطاً يديـــه إلـــى السّـــماء، "هـــاهي ابنتـــي، الحمـــد لله"، نعـــم، كـــان ذاك أبـــي الحنـــون، الّـــذي مـــلأ المكـــان دموعـــه فرحًـــا بقـــدومي. ذاك هـــو أبـــي الّـــذي قســـتْ الظّـــروف عليـــه، وأخــذت منـــه كـــلّ مـــا بنـــاه لأجلنـــا بلمـــح البصـــر، بقـــذائف حقيـــرة حقـــودة ظالمـــة، قصـــفتْ مخيمنـــا. عانقتُـــه بشـــدّة، واقتربـــتُ لتقبيـــل يديْـــه، لكنّـــه أمســـك وجهـــي الصّـــغير براحتيْـــه، ورســـم قبلـــة علـــى جبينـــي الممتلـــئ. اصـــطحبنا صـــديقُ والـــدي إلـــى مكـــان إقامتنـــا فـــي الشّـــرحبيل، حيـــث وجـــدتُ عشـــرات النّســـاء ممّـــن أعـــرفهنّ ولا أعـــرفهنّ، ووجـــه أمّـــي الأبـــيض الســـموح يقبلنـــي وتمســـح دمعتـــي باكيـــة مزغـــردة بعـــودة طفلتهـــا الّتـــي مهمـــا كبـــرت ســـتبقى تحتـــاج إلـــى مـــن يضـــمّها لـــيلًا، ويقبّلها في كلّ صباح.

مضـــت أشـــهر، وصـــورة ضـــابط الأمـــن البشـــع تصـــحبني عنـــد نـــومي ككـــابوسٍ، فأصحو على صوتها الحنون:

"أمّي حبيبتي، إنتي هنا، إنتي معنا".

فيطمـــئنّ قلبـــي، وســـرعان مـــا تتحـــوّل إلـــى حـــالات إغمـــاء يوميّـــة كلّمـــا رأيـــت أيّ أحـــدٍ يحمـــل ســـلاحًا، فقـــد عشـــتُ معانـــاة بشـــعة، ولـــم أتـــرك طبيبًـــا إلّا وقمـــتُ

بزيارتـــه، وكلّهــم أجمعــوا علـــى أنّـــه يجــب أن أســاعدَ نفســي للخـــروج مـــن تلـــك الصدمة.
بدأت سلسلة الوداعات المتتالية لعائلتي الصّغيرة التي لابدّ لأن يكون لهم ذكر في كل ساعة تمر في حياتي الجديدة، صورهم امتلأت بها جدران متحفي الحبيب. طبعًا استعملت هذه التّسمية، لأنّها اختلفت كليًّا عن حياتي القديمة، فاليوم أستطيع أن أرمي ملابسي في كلّ أرجاء منزلي، وأستطيع ألّا أنظّف أواني المطبخ بعد استعمالها، أو أستأذن للخروج في أيّ وقت أريده. في الحقيقة نسيت الحياةَ الطبيعية ضمن العائلة، فحين بدأت ملامح الثّورة هنا، كان مكان الاعتصامُ قريبًا لدرجة أنّني حين أرى أي خبر عن صيدا فيها على شاشة التّلفاز، أســتطيع التّأكــد بنفســي فــورًا مــن صــحّة الخبــر مــن دون أي خــوف. هنا كلّ شيء يختلف، آلاف المتظاهرين الّذين يطالبون بإسقاط النّظام الطّائفي الفاسد. الأعلام اللّبنانية تخفق شامخة في الهواء تصرخ عاليا " كلّنا للوطن، كلّنا للعلم ". هذه الثّورة حرّكت آلاف المشاعر والأحاسيس، والذّكريات لبلدٍ آخر نزف في ثورته حيث كانت تُقتلع من صميمها. كلّ شيء في الثّورة هذه كان جميلًا، فلم أكن أستطيع منع نفسي من التّجول في كلّ ليلة في الساحة، الخيم مصفوفة بخطٍّ أفقيٍّ، تعرف صاحب كلّ خيمة من العبارات المكتوبة على أبوابها، فخيمة المحاميين حرصوا على وضع الرقم السّاخن في الحالات الطّارئة، وخيمة أخرى لصق عليها آية قرءانية، وحديث شريف عن الظّلم والتّحرر من الظالمين، توقّعت أن تكون لإحدى الجماعات، فقد كان أصحاب تلك الخيمة طيّبي الملامح، وفي خيمة مجاورة أطفال يرسمون ويلطّخون ثيابهم بالألوان، وعلى وجوههم تعيش شجرة الأرز، وفي الوسط مئات المتظاهرين يرددون الهُتافات والعبارات الرّافضة للظّلم ، وفي المساء تتحوّل إلى حلقات من المعتصمين يتحدّثون ويتناقشون حول استمراريّة الثّورة، وبعض النّصائح والتّعليمات من كبار السّنّ الّذين عاصروا حروبًا قديمة في لبنان.
لفتتنــي عبــارة " اكتــب وجعــك، وســمّع صــوتك" وقفــت طــويلًا أمامهــا، وأدركــت أنّ النّـــاس لاحظـــوا طـــول وقـــوفي، فهـــل فعـــلًا أســـتطيع كتابـــة وجعـــي؟، بحثـــت عـــن مكـــانٍ لأجلـــس فيـــه وســـط الزّحـــام مـــع دفتـــري الكئيـــب، جلســـت جانبًـــا علـــى

رصيفٍ ممتلئ بالبشر بعد أن تأمّلت كلّ النّاس، وقرأت كلّ العبارات، والتقطت بعض الصّور للذّكرى فقط، وسلّمتُ على أصدقائي من مختلف الجنسيات، وبرّرت لهم سبب وقوفي على الحياد، لكنّهم رفضوا مبرراتي بطمأنتي إذا شاركنا في ثورتهم أنّه لن يحصل شيء لي ولفرقتنا الحبيبة (لاجئ)، لكن من سيعرف نوايانا البريئة بأننا فقط نريد أن نهديهم رقصة من تراثنا لتلك الثّورة السّلميّة، أو أغنية يؤلّفها مالك، أو قصيدة شعر يلقيها طلال، ولكن من سيصدّق بأنّنا لا نريد إشعال الفتنة في بلد ليس بلدنا.

كان باعة القهوة كثيرون، لكن لكلّ واحدٍ منهم زبائنه، وعند أطراف الشّارع سيّارات للجيش اللّبناني والأمن الّذين بانت عليهم ملامح التّعب والأنس، فمنهم من كان يلبّي رغبة الآخرين بأخذ صور معه، ومنهم من كان يتجوّل بين المعتصمين، ومنهم من كان يشتري ما يريد أن يأكله، كما كانت سيّارات إسعاف، وشبّان، وشابّات في العقد الثاني من العمر، يقفون في حالة تأهّب. كنت أتأمّل كلّ ما حولي. غريبةٌ تلك الثّورة، رأيت فتاة تحاول جذب انتباه شاب فتتمايل أمامه وتضحك لكلامه حتّى لو كان تافهًا، وشبّان مراهقون يحومون حول فتيات يرتدين من اللّباس ما شفّ، وأخرى تجرّ كلبها الأبيض اللّطيف، وددت لو أحمله، لكنّ تربيتنا الدّينيّة مازالت تؤثّر بي، وذلك بأنّني لا أستطيع لمسه لأمور كثيرة، تجاوزت الأمر حين أتى صديق بلال بكلبٍ أسود، ولأوّل مرّة أضع يدي على كلب، لكنّي لم أغسل يديّ بالتّراب سبع مرّات بحسب معتقداتي.

سيّدة عجوز، وأمّ، وزوج، وأطفال وضعوا كراسٍ خشبيّةً تستطيع تسكيرها، وأشعلوا فحمًا للنّرجيلة، وأحضروا بعض الأطعمة والمشروبات، حتّى أنّه كان هناك بائعٌ للّحم المشويّ، وحتّى تسميات عربات الباعة المتجوّلين، كانت بأسماء الثّورة. (صاج الثّورة، ماء بارد للثّورة، مشروبات الثّورة)، وخيمة لفتت انتباهي كتب عليها، (لو كنت رئيسًا ماذا

تفعـل؟) وعـرش ضـخم مصـنوع مـن قنـاني المـاء البلاسـتيكيّة، والأغـرب مـن ذلـك أنّ دوار إيليـا أيّ سـاحة الثّـورة ذاتهـا، اختفـى منهـا جميـع المتسـوّلين إذ كانت تعجّ بهم عادة، ربّما لأنّ زبائنهم من سائقي السّيّارات.

لطالمـا وددت لـو أفجّـر كـلّ غضـبي وثـورتي معهـم، أودّ لـو أنّنـي أسـتطيع مشـاركة كـلّ أعضـاء فرقتـي معهـم، لأقـول لهـم إنّنـا مـع كـلّ مظلـوم، لكـن لا أسـتطيع حتّـى أن أحلـم بـذلك، لأنّنـي لاجئـة، ولأنّنـي سـمعت همسـاتٍ تنـذرني بعـدم المشـاركة. التزمـتُ الصّـمت، والمراقبـة فقـط، لكـنّ دقـات قلبـي كانـت تطـرق حينمـا كانـت تسـمع نشـيد مـوطني مـن هـؤلاء الثـائرين.-وهـل أسـتطيع أن أرى لبنـان يومًـا وطنًـا لـي؟ فـي سـوريا كـان علينـا الحيـاد لأنّنـا فلسـطينيّون واليـوم ربمـا علينـا الصّـمت أيضًـا، ولكـن لمـاذا وإلـى متـى؟ سـبع سـنواتٍ، أليسـت كفيلـة بـأن أعتبـر هـذا البلـد وطنًـا جديـدًا لـي؟ فأنـا أعتبـر هـذه المدينـة المكـان الـدّافئ الّـذي أشـتاقه، ولبحـره، وزواريبـه القديمـة، وسـوقه، وسـاحة القـدس، والكـورنيش، وحتّـى شـعبه الّـذي أحبّنـي أو رفضـني، أيضًـا أحبّـه.

رأيـت وليـدًا الّـذي ربّمـا وجـد أصـدقاء يناسـبون طولـه، لـم أعـد أعـرف بـمَ أركّـز أو أفكّـر، فـأمّي لـم تكلّمنـي منـذ يـومين، لكنّـي لسـت قلقـة أبـدًا، وحتّـى محادثـاتي مـع إخـوتي صـارت معـدودة فـي الأسـبوع، ربّمـا لأنّنـي قطعـت شـبكة الإنترنـت مـن منزلـي، لأسـبابٍ كثيـرة، وصـرت أخشـى علـى نفسـي مـن الاكتئـاب والحـزن، حتّـى إنّنـي خشـيتُ علـى نفسـي مـن الـذّبول، فـأين ربـا الّتـي مـلأت جـدران بيتهـا بـأربعين شـهادة حصـلت عليهـا مـن ورشـات العمـل المختلفـة والمتنوّعـة، فقـد تعرّفـت خلالهـا علـى كـلّ المخيّمـات الفلسـطينيّة، وصـادقت أناسًـا كثيـرين، فمـا مـن ورشـة عمـل أسـمع بهـا إلّا وكنـت أوّل الحاضـرين حتّـى إن كـان موضـوعها لا يهمّنـي، لكـنّ شـغفي لمعرفـة كـلّ شـيء كـان يجبرنـي على تحمّل كلّ الموضوعات المطروحة.

هــذا البلــد كـــان بالنّســبة لـــي، تكـــوين ســيرة ذاتيّـــة مهنيّـــة ضـــخمة وشـــبكة علاقـــات لا يُستهان بها، وثقة ومحبّة من كلّ الّذين تعرّفت عليهم.

يــالله كــم أشــتاق لصــوت والــدي حــين كــان ينادينــا كلّنــا إلــى الصّــلاة جماعــة معــه، فنتــذمّر ونغضــب، ولكــن بغيــر إرادتنــا تعوّدنــا أن نصــلي، وحــين كبــرت صــارتْ الصّـــلاة راحـــة وطُمأنينـــة، صـــارت روحـــي هادئـــة صـــافية مـــن كـــل شـــوائب الحيــاة، لا يعكّرهــا أذى، ولا تثيرهــا ملــذّات الــدّنيا. كــم أحــنُّ إلــى ســجود ينســيني ألــم الغربــة، وألــم الفــراق، كــم أحــن إلــى آيــاتٍ يأخــذنني إلــى أعــالي السّــماء، إلــى رب كـــريم يحبّنـــي وأحبّـــه. كـــم أشـــتاق إلـــى رســـول كنـــت أراه فـــي منـــامي يمســـح علـــــى رأســـــي، ورؤى صـــــادقة تصـــــبح حقيقـــــة فـــــي دنيـــــاي.

آه علـــى ســـاعاتٍ تمضـــي وأنـــا أرى النّـــاس مـــن حـــولي يضـــحكون ويتســـامرون ويغضـــبون لثـــورتهم، مـــنهم مـــن فـــرش الأرض بســـاطًا لينـــامَ عليـــه، ومـــنهم مـــن أحضـــر خيمـــةً صـــغيرة يقطـــع بهـــا طريـــق السّـــيّارات، ومـــنهم مـــن بقـــي مـــع أركيلتـــه، والقليـــل مـــن الأصـــدقاء الّـــذين يتناقشـــون حـــول اســـتمرار اعتصـــامهم، وأنـــا هنـــا وحـــدي أشـــرب قهـــوتي وحـــولي هـــؤلاء الّـــذين كـــانوا جـــزءًا مـــن عـــائلتي الّتـــي لا تحمـــل زمـــرة دمـــي نفســـها، إخـــوتي الّـــذين لـــم تلـــدهم أمّـــي، يحـــدّثونني عـــن أوجـــاعهم وغـــربتهم القاتلـــة عـــن ذويهـــم، بينمـــا كنـــت أصـــغي إلـــيهم، وأهـــزّ برأســـي لأطمئـــنهم بـــأنّني أســـمعهم وأهـــتم لأمـــرهم بكـــلّ حواســـي، فكـــم كنـــت أشـــتاق لمـــن يســـمعني حـــين أصـــرخ، وحـــين أبكـــي، وحـــين أحكـــي روايـــات وقصصًـــا عـــن أهلـــي وأحبّتـــي، عـــن وجـــع اليرمـــوك فـــي قلبـــي، عـــن بيـــوت قُصـــفت، وأرواح غرقـــت فـــي قـــاع البحـــر، عـــن أطفـــال يُتّمـــوا، وأمّهـــاتٍ تـــرمّلن، وشـــباب كثيـــرين لا يحصـــى عـــددهم فـــي الســـجون، وأنـــاس لـــم يُعـــرف مصـــيرهم فـــي تلـــك الحـــرب اللّعينة.

كـــم أكـــره الحـــرب يـــا أمـــي، وكـــم أكـــره أن أقـــف فـــي الحيـــاد، أكـــره أن تبقـــى كلمـــاتي داخلـــي، وأكـــره تلـــك الضـــجة الهائمـــة علـــى حيـــاتي، هنـــاك صـــور وملصـــقات

وعبارات تفاؤل ألصقتها على جدران منزلي، كراتين متنوعة لفرز النّفايات من البلاستيك والورق وأكياس النايلون والزّجاج، وحين أشتري أيّ شيءٍ لا آخذ كيس نايلون لكي لا أزيد النفايات. أضبط نفسي حين أسمع شتائم عن اللاجئين، وأساند إخوتي الفلسطينيين، حين صدر قرار إجازة العمل في لبنان مع أنّني لا أُحتسب على الطّرفين، ففي نظر القانون اللّبناني أنا مجرّد فئة خاصّة لست بفلسطينيّة ولست بسوريّة.

شيء مضحك ومقرف ومبكٍ، ففي كلّ ستّة أشهر يتوجّب عليّ زيارة مقرّ الأمن العام، لكي أجدّد إقامتي، وفي حال إنتهاء صلاحيّة وثيقة سفري يتوجّب عليّ زيارة السّفارة السّوريّة في لبنان ودفع 325 دولارًا أميركيًّا لتجديده لمدّة سنتين فقط، وفي حال زيارتي للسّفارة الفلسطينيّة لطلب جواز سفر فلسطينيّ يرفضون لأنّهم لا يعتبرونني مواطنة فلسطينيّة، لذا أرى أنّ الأمر يزداد تعقيدًا أكثر، ولربّما ُصدمت حين عرفت أن مخيّمي يُعتبر مجرد تجمع وليس مخيمًا معترفًا به في الأنروا، تساؤلات عديدة تدور في ذهني، ولا أحد يستطيع الإجابة عليها حتّى في فترة تطوعي في منظمة حقوق الإنسان تعمّقت كثيرا في البحث عن ماهيتي، من ياترى من هو الفلسطينيّ القادم من سوريا؟ ومن سيكون حين يهاجر إلى بلد رابع؟ وهل سأبقى في الحياد في كل دولة أجبر للرّحيل إليها، وإذا حصل والداي على الجنسيّة الهولنديّة وإخوتي الّذين تنوعت جنسياتهم، من الأميركيّة والألمانيّة إلى الهولنديّة سينفي ذلك حقّهم بالعودة إلى فلسطين، وهل سأبقى قريبتهم إذا ما بقيت جنسيتي عربيّة؟ هل سأبقى ابنة أمي وأبي إذا صاروا أوروبيين؟.

أذكر حين وقفت أمام السفارة الهولنديّة وحدي، راسمة كلّ أفراد عائلتي على كرتونة زرقاء، وكتبتُ عليها أسماءهم جميعا، وفي أيّ بلدٍ يعيش كلّ واحدٍ منهم. بدا الأمر غريبًا وقويًّا في الوقت نفسه، فكيف لفتاة أن تقف

وحدها أمام سفارة ضخمة من دون سابق إنذار، وبماذا كانت تفكّر، ومالذي دفعها لتقوم بذلك؟ حتّى نفسي لم أكن أصدّق بأنّني أنا تلك الّتي وقفت. شعرت بخوفٍ يزلزلني وذلك حين أتى رجل الأمن ليسألني عن سبب وقوفي، وحين أخذ أوراقي وأرسلها إلى غيره، وحين نزل بعض الموظفين هناك ليروني، وبعض المارة، وأنا أفكر وأفكر وأفكر ماذا سيفعلون بي. ربّما سيؤخّرون ملف لم شملي مرّة أخرى مع عائلتي، وبطبيعة الحال كنتُ قد اتّخذت قراري بمغادرة البلد بطريقة غير شرعيّة، لأنّني سئمت كلّ شيء، حتّى الشّوق سئمته.

حين أتى رجل الأمن مرة أخرى، أعطاني ورقة كُتب عليها إيميل السّفارة في بيروت، وطلب منّي المغادرة هامسًا في أذني: "أرسلي كلّ ما تريدينه هنا وارحلي، ولا تضرّينا وما منضرك".

تلعثمتُ، وارتجّ صوتي، وحملتُ عائلتي والورقة، ورحلت مسرعة وصديقٍ لي اصطحبته ليلتقط لي صورة هناك، فالإعلام هو ما ينفع في هذه الأيّام، ووضعت تلك الصورة مع رسالة إنسانية كتبت فيها كلّ أوجاعي على صفحتي الإلكترونيّة، ومضيتُ معه إلى حيث نسكن. في المساء تفاجأت بكميّة التّعليقات والمشاركات على ذلك المنشور، وتلقّيت عشرات الاتصالات من الأصدقاء والمعارف والصحفيين\ات يحاولون وصف دعمهم ومحبتهم. لم أكن أتوقّع ذلك أبدًا حتى الهاشتاغ (#كلنا_عيلتك) كان مفرحًا، لأنّه أشعرني بكلّ الحبّ الّذي يكنونه لي.

بدأت الصّحف والمواقع الإلكترونية تهتمّ بهذا الخبر، فلم يسبق لأحد أن قام بمثل هذه الخطوة، ما جعلني أفكّر بخطوات عمليّة تجاه ذاك الموضوع، كأن أزور السّفارة كلّ يوم خميس تتابعًا لهذا اليوم، وبدأت أتذكّر حملات المناصرة والحشد والتأييد، حتى بات الأمر مقلقًا لهم، فما إن أصل حتّى يدخلوني إلى مقر السّفارة في محاولة من إحدى الموظفات إقناعي بأنّه لا

فائدة من مجيئي إليهم، لكنّ جميع النصائح من أصدقاء حقوقيين بالاستمرار بحملتي، فصرت أتفنّن باعتصاماتي، فمرّة أكتب على قميصي الأبيض رقم ملف لم شملي، وعبارة (من حقّي العيش مع عائلتي)، وودت لو أنّني أستطيع الرّقص مثلًا مرتديةً زورقًا ملطّخًا بدماء الغرقى، وغيرها من الأمور المجنونة والجميلة، لكن خوفي وحذري جعلاني ألتزم قليلًا، فربّما يلفّقون لي تهمة الشغب علمًا أنّها واكبت وقت الثّورة اللبنانية، وربّما يؤثّر ذلك على إقامتي، وما هي إلّا أسابيع قليلة وإذ بخبرٍ من والدتي بأنّه ورد بريدٌ إلكترونيا سيحدّد لي موعدًا جديداً للمقابلة. خبر مفرح، لكنّه محفوف بغُصّة، فالمقابلة القديمة في شهر 10 سنة 2017 أتت نتيجتها بالرّفض.

**اليوم 13 نوفمبر 2019**، الطّريق من المدينة إلى العاصمة مغلقة، فالمتظاهرون أحرقوا الإطارات، وقطعوا الشّارع بردم من التراب والحجارة، والدّقائق تمرّ، والسّيارات تنتظر رأفة الثّوار بهم، أمّا عن الفان الذي كنت فيه وبلال، حيث كنت الأنثى الوحيدة مع بعض الشّبآن الّذين يرتدون البذّات العسكريّة، وشبّانٍ آخرين ورجلٍ كبير في السّنِّ، والمُطمْئن في الأمر أنّ سائق الفان مصرٌ على إيصالِ ركّابه الى العاصمة. المهم في ذلك أنّني كنتُ على يقين بأنّني سوف أجري المقابلة في السفارة الهولنديّة الّتي انتظرتها ٤ سنوات، ووجود بلال معي يشعرني بالأمان. أكثر الأشخاص حزنًا على فراقي هو بلال، فهو رفيق الدّرب والغربة، ورفيق الصّلوحة، وسندي في فرقة لاجئ، وقصّة نجاحي.

مازالت الطّرق مقطوعة، والإطارات المحترقة تعيق النّظر، وملامح الأسى بدأت تظهر على وجه السائق، ليس حزنًا على اقتراب فوات موعد مقابلتي، لكن لأنّه لم يستطع الإيفاء بوعده بالوصول إلى العاصمة. توقّف عند حافّة طريق مجعّد المعالم، والوجوه محبطة من حولي، لكنّه مصرٌّ على عدم التّراجع والمضي قدمًا. حاولت الاتّصال بالسّفارة عدّة مرات، لأخبرهم بصعوبة الوصول في الوقت المحدّد، وبينما

أنـا كـذلك، وإذ بهـاتفي يـرن، فتحـدّثني موظّفـة مـن السّـفارة، لتسـألني إن كنـت أرغـب بتأجيلِ الموعـد إلـى وقـت لاحـق، رفضـت التّأجيـل حتّـى لـو أكملـت طريقـي إلـيهم مشـيًا علـــــــى الأقـــــــدام، ونمـــــــت أمـــــــام بـــــــاب ســـــــفارتهم.
تحرّكـتِ السّـيّارات، فـأدار السّـائق محرّكـه، دمعـتْ عينـاي، بحثـتُ عـن منـديلٍ ورقـيٍّ أمسح بـه دمعتـي، فكنـت لا أريـد أن يخـرب الكحـل فـي عينـيّ. الفـان يمشـي وقلبـي يسـبقه إلـى جسـر الكـولا، لأخـذ سـيّارة أجـرة توصـلني إلـى الأشـرفيّة. اسـتقلّيت سـيّارة أجـرة وبـلال، ولحسـن الحـظّ أنّ الطّرقـات إلـى مكـان السّـفارة كانـت ميسـرة. حـين وقفنـا عنـد مـدخل السّـفارة، التقيـت بالعسـكريّ الّـذي ابتسـم لـي مُرحّبًـا، فقـد تعـاطف معـي حـين كنـت أعتصـم سـابقًا. أعطيـت بـلال كـلّ أغراضـي، رافقتنـي موظّفـة الأمـن إلـى الطّـابق العاشـر، وطلبـت منّـي الجلـوس فـي غرفـة علـى حائطهـا مجسّـمات لأسـود، وتـاج ملـك، وصـورة لطفلـة فقـدت كـلّ شـعرها فـي الحـائط المقابـل، وعلـى يسـاري شـبّاك كبيـر مـن الزّجـاج، ومكاتـب فيهـا بعـض المـوظفين، والأبـواب الفاصـلة بـين مكـان انتظـاري والمكاتـب كانـت محكمـة الإغـلاق. خرجـت سـيّدة شـقراء فـي الخمسـينيّات، وراحـت تحـدّثني بخلـيطٍ مـن العربيّــة والإنكليزيــة، أخــذت كــلّ الأوراق الثّبوتيّــة الّتــي كنــت أحملهــا، وثيقــة السّــفر، وتـذكرة إقامـة مؤقّتـة صـادرتين مـن الجمهوريّـة العربيّـة السّـوريّة، وحـوالات مصـرفيّة مـن عـائلتي خـلال سـنة ٢٠١٩. دخلـت إلـى غرفـة طولهـا يسـاوي عرضـها تقريبـا متـر بمتـر، فيهـا كرسـيٌّ وشاشـةٌ، وتتمـة مكتـب مـن غرفـة مجـاورة يفصـلهما حـائط بلـوريٌّ لا أرى مـن خلالـه إلا وجهـي الـذّابل. رحّبـت بـي المترجمـة، وبـدأت موظّفـة باسـتجوابي، أسئلة سـهلة جدًّا، لكنّ الإجابـة عنهـا كانـت صـعبة، (مـاهو تـاريخ آخـر مـرّة رأيـتِ فيهـا والـدتك؟ مـاهو تـاريخ انتقالـك مـن بيتـك، مـاهو تـاريخ مـيلاد والـديك، مـن أيـن تـأتين بالمـال؟ كم مـرّة تتواصلين مـع أبويـك؟) كانـت تعيـد السـؤال بأشـكال مختلفـة، لكـن لـم يكـن ذلـك يـؤثر علـيّ، فإجابـاتي كانـتْ صـادقة، وكنـت أسـتخدم مصـطلح (تقريبًـا) لأتفـادى الخطـأ إن نسـيت التـواريخ بالضّـبط، وفيمـا كانـت الاسـئلة تنهـال علـيّ، وإذ ببـاب الغرفـة يُفـتح، لتخبرنـا تلـك السّـيّدة الشّـقراء بـأنّهم أعطـوا أمـرًا بإقفـال السّـفارة بأسـرع وقـت، لـذا

كـان مـن المفـروض الإسـراع بتتمـة الأسـئلة، مـا جعلنـي أتفـاءل أكثـر، حاولـت موظّفـة الـوزارة الإسـراع بطـرح الأسـئلة، وختمـت حـديثها بـأنّ الإجابـة سـتكون سـريعة مـن قبـل المعنيـين سـواء كانـت بـالرفض أو القبـول. سـاعتان كاملتـان وعشـرون دقيقـة ينتظرنـي بـلال. لـم أره فـور خروجـي، فقد وقـف رجـل الأمـن، وسـألني إذا مـا تـمّ الأمـر داعيًـا لـي بـالتّوفيق ولقـاء عـائلتي سـريعًا، رأيـت وجـه بـلال الأسـمر بلباسـه الأنيـق، فـركض نحـوي حـاملًا حقيبتـي، معاتبًـا: "سـاعتين ؟ شـو حكـو معـك طمنينـي؟" طلبـت منـه أن يصـوّرني فيـديو حـين أسـرد لـه ماحصـل، ناويـةً توثيـق كـلّ ذلـك، وبعـد أن حـدّثت بـلالًا بكـلّ مـا جرى، صار علينا التفكير بالعودة إلى صيدا.

الشـــوارع فـــي بيـــروت فارغـــة إلّا مـــن القليـــل مـــن السّـــيّارات، وبعـــض النّـــاس الّـــذين يمشـــون بســـرعة، وكـــأنّهم علـــى يقـــين بوقـــوع كارثـــة مـــا ، وفعـــلا كانـــت الطّـــرق المؤديّـــة إلـــى المدينـــة أغلبهـــا مقطوعـــة، إلـــى أن وجـــدنا طريقنـــا. وكعـــادتي أقـــوم بتقليـــبِ المشـــاهد فـــي عقلـــي، فألومهـــا عـــن بعـــض الإجابـــات، وأتمنّـــى لـــو أنّني اخترت إجابات أخرى، فيقاطعني بلال :

"ألا تريدين أن تكتبي ماحصل معك؟".

ضـــحكت وفرحـــت كثيـــرًا، لأنّـــه حفـــظ كـــلّ مـــا أقـــوم بـــه. ينـــادي مـــرّة أخـــرى: " ربـــا ربـــا "، وتـــدور بيننـــا بعـــض الأحاديـــث الاعتياديّـــة واللطيفـــة، وأســـرد فـــي اســـمي ربـــا، اســـم لطيـــف علـــى اللّســـان فـــإذا مـــا صـــرتُ بعمـــر الســـتين مـــثلاً أتوقـــع أن يحبّـــه أحفـــادي، لأنّـــه ســـهل الحفـــظ لأيّ طفـــل وعاشـــق، حتّـــى فيـــروز غنـــت لـــي وكانـــت كلماتهـــا شـــبيهة بـــي. ربّمـــا سأضـــع بعـــض الكحـــل فـــي عينـــيّ، لكنّـــي لـــن أضـــع مســـاحيقَ التّجميـــل لأنّـــه لـــن يكـــون هنـــاك الكثيـــر مـــن التّجاعيـــد فـــي وجهـــي، فالمتفـــائلون ومحبـــو الحيـــاة لا يظهـــر الكِبـــر علـــيهم بحســـب خبرتـــي، وربمـــا سأضـــع بعـــض الإكســـسوارات، والخـــواتم الفضـــة أو الـــذهب، وسأضـــع طـــوقي المكتـــوب عليـــه (فلســـطينية) الّـــذي يحـــتفظ بسلســـلة مـــن الـــذّكريات الجميلـــة حـــين كنـــتُ أتحـــدث عـــن غضـــبي فـــي إحـــدى ورشـــات العمـــل عـــن تصـــنيفي مـــن جنســـيّة

أخـــرى، ومحبتـــي لنســبي إلـــى أصـــلي ووطنـــي الحبيــب فلســطين، فوقفــت ســيرين وقتهـــا، وخلعـــت ذاك الطـــوق مـــن رقبتهـــا لتهـــديني إيّـــاه مـــع عنـــاق لطيـــفٍ، وكلمـــاتٍ مطمئنـــة "نحـــن هنـــا كلنـــا فلســـطينيون"، حتّـــى لـــو لـــم أكـــن فلســـطينيّة فســـأختارها مـــرّة أخـــرى، فلـــولا أنّنـــي فلســـطينية لـــم أكـــن أســـتطيع زرع محبّتهـــا فـــي قلـــوب أولادي، وأحبّتـــي، فهـــا هـــو طـــلال الّـــذي يتغنّـــى بحبّهـــا، فحـــين انضـــم إلينـــا كـــان ذاك الشّـــابّ اليـــافع الّـــذي يهـــوى الشّـــعر ولا يتقنـــه، فكنّـــا نتبـــادلُ الأحاديـــثَ، ونشـــجّعَ بعضَـــنا علـــى قـــراءة الكتـــب، ونـــتعلّم كيفيّـــة الوقـــوف علـــى خشـــبة المســـرح، وكيفيّـــة الإلقـــاء، فقـــد كانـــت مخـــارجُ حروفـــه تنطلـــق بســـلاســـة وعذوبة، وما كان منه بعد كلّ تلك اللقاءات إلّا أن يقول:

"أنا سوريّ الدّم وفلسطينيّ الهوى".

لقـــد اســـتطعت أن أنقـــل زمـــرة دمـــي الفلســـطينيّة إلـــى قلـــوبهم، واســـتطعت أن أكمـــل رســـالتي مـــن خلالهـــم، فقـــد نجـــح طـــلال بتأســـيس فريـــق للشّـــعر لتشـــجيع أقرانـــه علـــى القـــراءة والكتابـــة، فحـــين كـــان يرافقنـــي إلـــى ســـهرة تجمـــع أدبـــاء ومثقفـــين\ات ومحبّـــين للشّـــعر والأدب، كنـــتُ أتقصـــد أن أعـــرّف عنـــه (الشّـــاعر طـــلال) الّـــذي لقّبه أصدقاؤه بالشّاعر الطّبيب.

أمّـــا عـــن صـــلّوحة شـــقيقي، ورياضـــته المحبّبـــة، فقـــد كانـــت ترجمتهـــا فـــي اللّغـــة العربيّـــة (رقـــص الشّـــوارع)، وهـــذا ينـــافي عاداتنـــا بـــأنّ الـــرّقص لـــيس للـــذكور، وفـــي الشّـــارع يكـــون للزّعـــران، وبهـــذا يكـــون صـــالح أول ثـــائر صـــغير فـــي عائلتنـــا حـــين كـــان بعمـــر 9 ســـنوات فـــي مخـــيم اليرمـــوك، بـــدأ يتـــردد علـــى نـــادٍ لتعلـــيم تلـــك الحركـــات الرّشـــيقة، فيتـــدحرج مـــرّات، ويتشـــقلب عـــدّة دورات متتاليـــة علـــى رأســـه، ويمشـــي خطـــوات علـــى الجـــدار مـــع قفـــزة تبهـــر أنظـــار الـــرّائين، كـــلّ ذلـــك مـــن دون علـــم والـــدي الّـــذي اقتنـــع أنّ تلـــك الرّياضـــة شـــرعًا فـــي ديننـــا لاتجـــوز، وظـــلّ الأمـــرُ خفيًّـــا إلـــى حفـــل افتتـــاح محـــل والـــدي علـــى الشّـــارع الرّئيســـي للمخـــيّم، وبـــدأت موســـيقى الهيـــب هـــوب تعلـــو، وبـــدأ مشـــجعو صـــالح وغيـــره مـــن

الراقصين بالقيام بتلك الحركات البلهوانيّة. كنّا نراقب أخي الصّغير مندهشين لتلك اللّياقة الرّائعة، وفي الوقت نفسه كنّا نخشى من ردّة فعل والدي الّذي كان متمسّكًا بكلّ المعتقدات الدّينيّة الّتي تربّينا عليها، لكنّ الخوفَ زال سريعًا حين صفّق له الجميع فرحين بإنجازه، ومنذ ذلك الوقت بدأ صالح يمارس رياضته علنًا، وحين لجئنا كان المدرّب الوحيد في منطقتنا لهذه الرّياضة، فاستطاع تكوين فريق من الأطفال المنجذبين لها، ليس هذا فحسب، بل امتلك صلوحة مهارة الحوار، وتحويل النّزاع، فكنت أستعين به كثيرًا في حلّ بعض الشّوائب الصّغيرة الّتي من المؤكّد أنّها ستحصل معنا في فرقتنا الحبيبة (لاجئ).

ومن المؤكد إذا ذكرت لاجئ أي أنني أذكر الحب الحقيقي، وكأيّ أنثى في مخاض تلك الأحداث، ما زال بداخلي شيء ما يخفق، حتّى لو أتعبني النّبض في الانتظارات التي لا تنتهي، لابدّ لفتاة مثلي أن يكون حولها معجبٌ، أوعاشقٌ، أو شاعر يتغنى باسمي وبابتسامتي التي لا أحبّ أن أفقدَها يومًا، فقد كنت أودّ أن أفتح الأبواب، وأعلن الحبّ ديني، وأطأ النّجوم متى أردت، وأنفخ على القمر فيتأرجّح إلى حيث يريد. وددت لو أنّني أستطيع أن أمنح قلبي تلك الحريّة فيسرح في غياهب ومتاهات العشق، ولكن قلبي لم يئن له آنذاك بفتح أبواب قلعته الحصينة، ولعلّي أكثر الفتيات اللّواتي قابلن أناسًا خلال الثّماني سنوات الماضية، ففي كلّ ورشة عمل تكون مع إقامة طويلة في أفخر وأجمل الفنادق في بيروت، وغيرها من المناطق الرّائعة في لبنان، لا أخالط المتدربين كثيراً، ولا أسهر معهم، ولا أودّع أحدًا، مع فرض وجودي دائمًا في أثناء النّقاشات والحوارات والعمل الجماعي، إذ كنتُ في كلّ مرّة أحاول رسم صورة الفتاة الفلسطينيّة القويّة، والضّحوكة، والمتفائلة، لأنّني أودُّ ترك الأثر لدى الجميع عنّا نحن

الفلسطينيون، فالبشر للأسف يحبّون التّعميم، وهذا كفيل بي بأن أكون المثاليّة والجرئية أمامهم.

في صباح 27 من آخر شهر لعام 2019، تعانقتِ الأرواح، وتلاقت لكن بشكلٍ جديدٍ ومختلفٍ، تعانقت روحان إلى الأبد، وتوحّدت طرقات قلبين على أنغام متناسقةٍ متجانسة الوزن والإيقاع، فقد كانا يختطفان من الزّمن تلك الدّقائق المعدودة ليقولا ما لا يُقال، ليرويا حكاياتِ الماضي والحاضر، ويختزلا مستقبلًا بأكمله، كيف لهذا الحبّ أن يُبعث إلى الحياة وسط هذا الزّحام، والوجوه والاختلاف والحروب، وكيف له أن ينبض حبًا لذاك المسافر الّذي يتأصّل في الجذور، وكيف له أن يبعث في النّفس طُمأنينة التحام الحبِّ في متحف ملأه غبار الذّكريات وكهولة الغياب.

عند بابِ مطار بيروت وقفتُ حائرةً منتظرة عودتها، دمعتي تكاد تنهمر، لم أستطع المقاومة، حين بدأت ملامحها ورائحة أنفاسها تختفي. لم أعد أرى غير المارّين مع حقائبهم. انتظرْتُ وتلفّت حولي، حاولتُ النظر لشاشة معلقة فوق منطقة العبور التي كانت تبعث في قلبي التّشاؤم، لأنّها تنذر بأنّ باب طيّارتها مفتوح لاستقبال آخر المسافرين. كان المكان باردًا جدًّا، والحزن يعم في أرجائه، ومودعون كثر هنا وهناك.

هنا بالذّات ودّعت الكثيرين، وكنتُ أروّض نفسي على اعتيادي الوداعات المتكرّرة.

وما بقي من قصتي سوى الانتظار، والعودة من حيث أتيت، حاملة كل أشواقي في دفتر مذكراتي، فإن لحلمي بقيّة.

تصميم غلاف قصتي للمبدع معاذ موسى، وكذلك الصديق حسين علي.

# بنفسج

رشا علي

# بنفســج

**في أوطاننا يقف الحبُّ مصلوبًا فوق أكتاف العاشقين،**
**ينتظر سلامة الوطن من جرحه الغائر**
**وما أصعب الانتظار، وما أكرهه!**
**ما أطوله! وما أحوجنا إلى قتله.**

**رشــا علــي**

كانــت تلملــمُ النّجمــات لتصــنع لــي ســطرًا مــن كلمــات، تتلعــثم شــفاهُها عنــدما تنطــقُ بــأوّلِ كلمــةٍ، فقــد اعتــادت أن أصــحّح لهــا أخطاءهــا أحيانًــا، وأحيانًــا أخــرى كانــت هــي مــن تصــحّح لــي، لكــن يــوم قالــت أحبّــكَ، أســقطَت فــي قلبــي حروفًــا ومعــانٍ جديــدة تخصّــني وحــدي، فصــار اعتيــادًا أن أنهــي بهــا أيّ ســطرٍ أكتبــه من يومها.

كانــت كلمتُهــا مزيجًــا مــن تركيبــةٍ جديــدةٍ لا أدري كيــف صــنعتْها، لكــن مــا أعرفــه جيّــدًا أنّهــا أنزلتهــا فــي قلبــي بــاحترافٍ، فمــا الّــذي تغيّــر فجــأةً؟!، كيــف ســقطْنا فــي فخّ الغياب؟! وكيف عانقْنا الوداعَ متيقظين؟!

كيف رحلْتِ وأخذْتِ قلبي؟!

في الحبِّ والحربِ جميعنا عاجزون، والبقاء فقط للأقوى.

غــدًا سأمضــي وحــدي، أحــفّ الطّرقــات وحــدي، أختــارُ، أتعــبُ، أمشــي وأيــأس وحدي.

خنــتِ العهــد يــا بنفســجُ، وخانَــكِ الجميــعُ إلّا قلبــي، فقــد كنْــتِ كحلــمٍ مــرَّ، وعلــيّ أن أنهيَــه بأكاليــلَ مــن الزّهــورِ، لكنّــه انقضــى بغُصّــةٍ وطعنــةٍ، فمــذ رحلْــتِ وأنــا أزحــفُ. كــلُّ الأشــياءِ تبــدو بــاردةً وباهتــةً بــلا معــالم أو حيــاة. ثمّــةَ شــيءٌ مــا ذهــب ولــن يعــودَ، فأنــا أراكِ فــي جميــع الوجــوه ولا ترينــني، أنتظــرُكِ فــي كــلّ الأوقــاتِ ولا تأتين. أطلْتِ الغيابَ ولا جدوى من الانتظارِ أكثر.

**المكتبة العامّة - تشرين الأول - 2012**

كانــت تتجــوّلُ بــين الكتــبِ، وتنثــرُ عبيرَهــا فــي الممــرّاتِ الّتــي تحــوي علــى رفوفِها كلّ تلك الإصدارات.

رأيتهــا تقــفُ مطــوّلًا فــي قســم الكتــب العلميّــة، أخــذت مجموعــةً لا بــأس بهــا، لــم يســاعدْني نظــري أن أعرفهــا كلّهــا، ثــمّ توجّهــت إلــى قســم الرّوايــات حديثــة

الإصـــدار، وقفـــت لوقـــت، وراحـــتْ تقلّـــب الكتـــبَ المتكدّســـةّ، وكأنّهـــا تبحـــثُ عـــن طفـلٍ ضـائعٍ فـي الـتّلال البعيـدة، وبعـد مـدّةٍ مـن البحـثِ المتواصـلِ، يبـدو أنّهـا لـم تجـدْ مـا كانـتْ تبحـثُ عنـه، فاستسـلمَت، وحملـتْ مـا اختارتـه مـن كتـبٍ، ثـمَّ توجّهـت إلـى الصّـندوقِ لمحاسـبةِ العـمّ أبـي غسّـان، وسـمعْتها تسـألُ عـن روايـةٍ اسـمها (الجـدران الملطّخـة) لكاتـبٍ حـديثٍ اسـمه فـارس الأحمـر، فأخبرهـا العـمّ أبـو غسـان بـأنّ كمّيّـة لا بـأس بهـا مـن هـذه الرّوايـةِ ستصـل بعـد عشـرة أيّـامٍ كحـدٍّ أقصى. ابتسَمَتْ، دفعَتْ بهدوءٍ ثمن ما اشترتْه من كتبٍ وذهبتْ.

وجـدْتني أتبعُهـا بخطـواتٍ متباطئـةٍ بـرغم أنّ كـلّ مـا بـي كـان يـدفعُني إلـى اللّحاقِ بها.

- يا آنسة.. يا آنسة.

التفتت نحوي، ونظرتْ نحوي بتساؤل.

- سمعْتُكِ تسألين عن روايةِ الجدرانِ الملطّخةِ.
- أجل، لكنّها غير موجودةٍ.
- بإمكاني أن أعطيَكِ نسخةً منها إنْ أحببتِ، معي نسختان.
- لا داعي، شكرًا لك.

ومضَت، ووجدْتني مرّةً أخرى ألحقُ بها.

- للمناسـبةِ، الكاتـبُ، بعـد أسـبوعٍ، سـيكون موجـودًا فـي المكتبـةِ العامّـة، وسيناقشُ هذه الرّوايةَ مع قرّائِهِ، ألّا ترغبين بالحضورِ؟

التفتت نحوي مبتسمةً، وقد انتابَها الفضولُ.

- نعم، أحبُّ أن أحضُرَ، قالتها بخجلٍ.

تداركْتُ خجلها، وقلْتُ لها:" دقيقة سأحضرُها لكِ".

أعطيْتُها الكتابَ، وكلّي شغفٌ وحماسةٌ للقائِها.

**المكتبة العامّة - نادي القراءة**

لملمْتُ ما في جَعْبتي من كلامٍ، رتّبْتُه مسبقًا، وحفظْتُه عن ظهر قلبٍ برغم تيقّني بأنّه لن يسعفَني، وانطلقْتُ أُحَلّقُ بين جمهورٍ غفيرٍ من القُرّاءِ الّذين لا أدري إن جاؤوا من أجلي أو لأجلِ ما كتبْتُ.

كلّهم يُبدون إعجابَهم بما خطّت يداي، وباحَ به قلبي، ووحدي كنْتُ أنتظرُ إعجابَكِ بها.

دَخَلَتْ تعانقُ أصابُعها جسدَ روايتي المنهكَ، روايَتي الّتي كنْتُ قد أصدرْتُها قبل شهورٍ قليلةٍ، ولم أكنْ أعلمُ أنّها ستلقى رواجًا عظيمًا كهذا.

في البدايةِ لم تستوعبْ عيناها ما رأتْه حين وجدَتْني جالسًا بين جمهورٍ من القُرّاءِ المعجبين، الّذين أثنوا على إبداعي وقلمي، فقد جلسَت، وعيناها تقتلانني فضولًا، ودهشةً، ورغبة، فرحّبْتُ بها مبتسمًا.

كان الصّمت يحفُّ حنجرتَها، إذ إنّه كان لأوّل مرّةٍ ينوي التّمرّدَ على حبالِهِ الصّوتيّةِ المكبوتةِ، لكنّ ثمّة خوفًا، ثمّةَ خوفًا.

اتخَذَتْ مكانًا مناسبًا يزيد من ارتباكي وارتباكها، إذ جلسَتْ في مكانٍ مقابلٍ لي.

افتتح صديقي (مازن) جلسةَ النّقاش معرّفًا بي، كاتبًا، ومقدّمًا ملخّصًا صغيرًا عن الرّوايةِ، حيث قال:" تُعتبرُ رواية الجدران الملطّخة من الرّواياتِ الأكثر مبيعًا خلال الشّهور الماضية، إذ يتحدّث فيها الكاتب عن مفاهيمَ حياتيةٍ، كالثّورةِ والسّلامِ، والعدالةِ لتحقيقِ الحريّةِ.

انهالت عليّ الأسئلة،حتّى سألتني إحدى القارئات:" لماذا جعلتَ النهاية مفتوحة وغير واضحة؟"

- أليستِ الحريّةُ واضحةً كالشّمسِ وجديرةً ومستحقةً لأبطالِها؟، فلماذا جعَلْتها غير محققة؟

قلتُ لها:" وهل يستغني الإنسانُ عن حرّيته طوعًا؟"

الحرّيّـــة مطلـــبٌ أساســـيٌّ، وحـــقٌّ مشـــروعٌ لكـــلّ إنســـانٍ، ولأنّنـــي أكتـــبُ واقعًـــا معاشًـــا - وللأســـف نحـــن أكثـــر الشّـــعوب الّتـــي تفتقـــد لهـــذا الجـــزء بشـــكلٍ كبيـــرٍ- كـــان حـــريٌّ بي ألّا أنهي روايتي وأغلقَها بظلامٍ دامسٍ غيرَ منتهٍ.

- هل تحررت فلسطين اليوم؟
- جعلْـــتُ النّهايـــةَ مفتوحـــةً كـــي يكـــون هنالـــك فجـــرٌ جديـــدٌ لأبطـــالٍ حقيقيـــين آخرين، ثمّ إنّه من قال لكِ إنّ الحريّة لم تتحقق؟
- الحرّيّـــــة تحقّقـــــت لمجـــــرّدِ أنَّ الأبطـــــالَ قـــــد كســـــرُوا حـــــاجزَ الخـــــوفِ والصّمْتِ، لكنّ دربَها طويلٌ، وأبطالَها كثيرون.

أيّـــدني العديـــدُ مـــن المشـــاركين فـــي هـــذه النّقطـــة الّتـــي توضّـــح بـــأنّ الحرّيّـــةَ تعنـــي التّحرر من قيودِ الخوف.

قال آخرُ:" وهل هذا يعني أنّه من الممكن أن نرى جزءًا ثانيًا من الرّواية"؟

قلـــت:" احتمـــالٌ كبيـــر طالمـــا أنّ الثـــوراتِ لـــم تنتـــهِ والمطالبـــة بالحريّـــة لا تـــزال قائمةً.

- وهل سيبقى الأبطال ينتظرون قلمك؟
- بل إنّهم ينتظرون حصادَ نضالِهم كي أكتبَه أنا، ويكتبُه غيري.

ضَـــحِكَتْ بنفســـجُ وقالـــت:" هـــذا يعنـــي أنّنـــا نحـــن مَـــنْ ســـينتظرُ ولا أحـــد غيرنـــا سيبقى على حافةِ الانتظار".

- سألْتها: مَنْ تقصدين بنحن؟
- قالت: "نحن قُرّاؤكَ".

أعجبتنـــي كـــاف الخطـــاب الّتـــي خصّـــتني بهـــا، وكـــأنّ فـــي ذلـــك تصـــريحًا واضـــحًا بأنّها ستبقى من قُرّائي الأبديين.

قلت:" يبدو أنّكِ تكرهين الانتظار؟"

- ككرهي للصّمتِ والقمعِ اللّذيْن وضّحتهما في روايتك.
- وهل كان مستفزًا إلى هذه الدرجة؟

- كلّا، بل كان مؤلمًا إلى حدّ الكره له.

أخــذت مناقشــةُ الرّوايــةِ وقتًــا أطــولَ ممّــا توقّعــت، وتضــاربتِ الآراءُ والأفكــارُ حــول إمكانيّــةِ إصــدار جــزءًا ثانيًــا منهــا، فمــنهم مَــنْ أيّــدَ الفكــرة، ومــنهم مَــنْ عارضَها، واكتفى بنهايتِها المفتوحةِ كي يرسمَ دربًا آخرَ لها في مخيلته.

كنــتُ ســعيدًا جــدًا بهــذا النّجــاح، طمُوحًــا للمحافظــةِ علــى ثقــة هــؤلاء القُــرّاء بالمزيــد ممّــا يرغبونــه، وأكثــر مــا أســعدني هــو حضــورُك المفعــمُ بالحيــاة ، المليء بالأسئلةِ.

تقــدّمت نحــوي بعــدما انتهينــا مــن المناقشــة،لتباركَ لــي هــذا المجهــودَ الكبيــرَ فــي رصدِ الأحداثِ، والمواقفِ، وتصويرِ الشخصيّات.

التمــعَ فــي عينيهــا ســؤالٌ كنــت قــد عرفْتُــه، فقلــت لهــا مــن دون أن تســأل:" لقــد أخفيــتُ عنــكِ الحقيقــةَ ربّمــا كــي لا أســببَ لــكِ الإحــراجَ هــذا أوّلًا، وثانيًــا، كــي لا أبدو كاتبًا فظًّا يُروّجُ لما يكتب".

أحببــتُ أن أتــركَ لــكِ حريّــةَ الاختيــار بــين المجــيء مــن عدمِــه، لكنّنــي فــي الحقيقــةِ كنــتُ خائفًــا مــن عــدم مجيئــك، وكنــتُ خائفًــا أن يكــون لقاؤنــا لقــاءً عــابرًا في محطةٍ من محطّاتِ الحياة، وبالمناسبةِ، ما اسمكِ؟

- بنفسج

- ب ن ف س ج ، اسمٌ جميلٌ جدًّا.

- كجمالِ صُدْفةِ لقائنا.

- بل أجمل، لكن هل سيكون لقاؤنا هذا لقاءً يتيمًا؟

ابتسمت وقالت:" أظنّه لا".

كــان الفــرحُ يلــفُّ المكــانَ، كأنّــه يعلــن ولادةَ قصّــةٍ جديــدةٍ أبطالهــا نحــن، فضــحك الكــونُ فــي وجهــي بعــدَ أعــوامٍ مــن مخاصــمَتِهِ لــي، شــعرْتُ بمــيلاد شــخصٍ جديــدٍ من رحم أرضٍ جافّةٍ.

لم يسبقْ لي أن شدّتْني أنثى نحوها بهذا الشّكل من قبل، لا أدري ما الّذي حصلَ، ويحصلُ، وسيحصلُ معي، غير أنّني أعددْتُ العدّةَ لخوضِ هذه الرّحلةِ بكلِّ تفاصيلِها، فلطالما كانت مزاجيّتي المفرطةِ، كالماردِ في صفو أيّامي، وكالحرب في ساحةِ سلامٍ دائم، إذ إنّها كانت أغلب اللّحظات تشكّكُ بما أشعرُ، وكثيرًا ما جعلتني أخسرُ مَنْ ناضلتُ لأجله سنواتٍ طويلةً، غير أنّني في هذه المرّة قد حسمْتُ قراري (سأناضلُ من دون خسارة)، فكيفَ لي أن أخسرَ أو أتجاهلَ صوتًا صار يرافقُني ويحتلَّ لحظاتي، وتفاصيلَ طُبعت في وجهي، كمرآةٍ كيفما التفتُّ رأيْتُها؟!.

معكِ صرتُ حرًّا، حرًّا من قيد وحدتي، من طفولتي، وأحرفي ولغتي، حرًّا من سجنِ أيّامي، وروتيني وذكرياتي. كان الفضولُ يجتاحُ ذاتي، ويراودُني عن نفسي إلى نفسِكِ. كلُّ ما بي لديه الفضولُ كي يعرفَكِ أكثر، كي يحبّكِ أكثر.

سألتها في موعدٍ أول:" مَنْ أنتِ يا بنفسج؟"

- أنا ماضٍ لا يغادر، ومستقبلٌ لا يأتي، وحاضرٌ لا يُعاش.
- ولمَ كلُّ هذا الحزنِ في كلماتك؟
- ينبغي علينا أن نحزنَ دائمًا في حضرة الموت.
- أتكتبين يا بنفسج؟
- أحيانًا، ولكنّني لا أحتفظُ بما أكتبُه خشيةً أن يعرفَني أحدٌ.
- وهل الكتابةُ ستجعلُ أحدًا يعرفُك؟
- الكتابةُ بالنسبةِ لي هي التجرّد من الذّات، والتّعرّي أمامَ الآخرين.
- قد يكون، لكن هذا أمرٌ نسبيٌّ، ويختلفُ من كاتبٍ إلى آخر.
- مَنْ هو الكاتبُ يا فارسُ بنظرك؟
- فلتكتشفي وتخبريني من هو بنفسك حينما أكتبُكِ.
- لا، لا تكتبني، إيّاكَ يا فارس.

- لمَ؟
- لأنّني لا أرغبُ بأن أُباعَ.

كان جوابًا مختصرًا، صادقًا، وصادمًا بالنّسبة لي. كان جوابًا عميقًا أكثر ممّا توقّعت.

- ماذا تدرسين؟
- أدرس في كليّة العلوم، قسم الفيزياء، في السّنة الثّالثة، وأسكن في إحدى حارات الياسمين مع أبٍ طيبٍ وحنون، يعمل مدرسًا لمادة التاريخ في إحدى ثانويات دمشق القديمة.
- وأمّك؟
- أمّي هي غصّتي ووجعي، فقد تُوفّيت في أثناء ولادتها لي، أنجبتني لأصارعَ الحياةَ وحدي.
- أتعرفين أن اسمَكِ جميل؟
- جميلٌ جدًّا! مَنْ سماكِ بهذا الاسم الرّائع؟
- كانت أمّي تحبّ البنفسج كثيرًا، وقبل أن تُتوفى طلبت من والدي الذّهابَ إلى بائع الزّهور كي يحضرَ لها باقةً من البنفسج، وعندما عاد كانت قد أنجبتني، وتُوفّيت، فأسماني أبي (بنفسج).
- أتحبّينه؟
- جدًّا، يذكّرني بها أينما ذهبت، إضافةً إلى أنّه نادرٌ وعفويٌّ.
- وأنا أحبُّه أيضّاً.

كان الجوُّ خريفيًّا، كلّ ما فيه يتساقطُ وينتظرُ ولادةً جديدة كقلبكِ. لم يكن كئيبًا برغم اصفراره بل كان أشبه بيومٍ ربيعيٍّ، فكلّ ما حوله يرقصُ ويطيرُ.

هكذا كان موعدنا الأوّل الّذي لن أنساه، ولن تُمحى تفاصيله ومعالم مكانه من ذاكرتي مهما تعاقبت عليّ الأيّام والسّنين.

إنّــه اللّحــنُ الأوّلُ لقصــيدتنا، إنّــه الكنايــاتُ والاســتعاراتُ للغتنــا، فقبلــكِ لا لغــةَ ولا كلامًــا يُــذكر، لا فصــلًا ولا موســيقى ولا ألحانًــا، عمــرًا مَــرَّ كالجمــاد، ولاشمسًا أشرقت في عمري كشمسِك.

مــرّتِ الأيّــامُ معًــا، وعشــنا حُلوهــا ومرّهــا بــرغم كــلّ الظّــروف السّــيّئة الّتــي كانــت تمرّ بها البلاد، وتزداد سوءًا يومًا بعد يومٍ.

ازداد الغضــب فــي قلــوب الكثيــرين، وكثــر العنــف بــين النّــاس، فصــاروا وجوهًــا لا تــألفُ بعضَــها الــبعض، وكــأنَّ هــذه المدينــةَ قــد مسّــها ســحرٌ مــا، وحــلّ عليهــا غضبُ الرّحمن فجأةً.

عــاث الكثيــرون فســادًا كبيــرًا، وقلّــتِ المــوادُ الأوليــة الأساســيّةُ، وفُقِــدَ الوَقُــودُ، فجــاعَ النّــاسُ، وعطشُــوا، وبــردُوا مــا انعكــس ســلبًا علــى الحالــةِ النّفســيّةِ للمــواطنين، وقــد عشْــنا شــتاءً مــرًّا، وقاســيًا، وحزينًــا، وخــيّم المــوت فــي ســمائنا ليأخذ معه الضعفاءَ من بيننا.

صــار المــوت أخــفَّ وجعًــا مــن الحيــاة الّتــي حاصــرتنا بمآســيها اليوميّــة، وجثثهــا المزروعــة بيننــا. خــوفي نحــو بنفســج كــان يــزداد كلّمــا طــال لقاؤنــا، وكلّمــا اســتبدَّ بــي حنــينٌ إليهــا، فقــد رأيتهــا بعــد طــول غيــابٍ عنهــا إذ لــم تكــن الطّرقــاتُ والظّروفُ تسمح لنا بذلك بأيّ حال.

حــدّقتُ طــويلاً فــي عينيهــا، لكنّهــا أبّــت أن تنظــرُ إلــيّ، فقــد كانــت تنظــرُ نحــو السّــماءِ بعــينٍ لاهفــةٍ، وكأنّهــا تبنــي جســرًا مــن الأحــلامِ بــين واقعِهــا الميــؤوسِ منــه وسمائِها الملأى غفرانًا وأملًا.

انتظرتُ ردّها، فخانني الصّبرُ والانتظارُ.

- تجهلين موقفي يا بنفسج؟ أطلتِ الرّدَ ولا أعصاب عندي .

نطقــتْ بحنجــرةٍ تطــوف وجعًــا:" كــلّ مــا بــي يتهــاوى، يتســاقطُ، يتنــاثرُ كالزّجاجِ فوقَ الغيومِ الحُبلى بالبكاءِ، أرأيتَ أمطارًا ملأى بالزجاج؟"

- نعم، هذه أنا.

كـلّ شـيءٍ يقـودُني نحـو الماضـي، لاشـيءَ يـدفعني قُـدمًا إلـى الأمـام، حتّـى أنـتَ يافـارس، الماضـي مـازال يرافقنـي، يسـتفزُّ ضـعفي، يقُـدّ أحلامـي، والمسـتقبل المنتظـر يقُـدّني مـن الأمـام فـأقفُ عاريـةً أمامَـك، أمـامَ هـذا الحاضـرِ المقـرفِ المتسـارعِ الأحـداثِ، فأجهلُـك، وتجهلُنـي، وأجهـلُ نفسـي، فهـلّا ضـممتني يافـارس ضـمةً أخيـرة؟، هـلّا سـترت عُريـي أمـام نفسـي، وبعـد ذلـك إن شـئتَ إرحل.

- مَنْ قال لكِ إنّني أريد أن أرحل؟
- هل يرحلُ المرءُ عن موطنِه؟ وكيف يكونُ حالُه؟
- قلتُ ذلك في نفسي خوفًا من فتحِ جدالٍ طويلٍ ينتهي بهزيمتي.
- كانت حزينةً وجميلة كما لم أرَها من قبل.
- قلت: تشبهين قصيدةً غريبة مطلعها حبّ وآخرها فراق.

أنهكتنـا الحـرّبُ، أفقـدتْنا القـدرةَ علـى العـيشِ بسـلامٍ فـي انتظـارِ المسـتقبلِ. لا شيءَ يدفعُنا إلى الأمامِ كما قلتِ يا بنفسج. لا شيء.

إنّنـا فـي سـاعةِ الصّـفرِ الّتـي لـن تُحسـمَ، إنّنـا فـي خنـدقٍ طويـلٍ، طويـلٍ جـدًّا، ويبـدو أنّـه لـن ينتهـي، ليتنـا كنّـا فـي حكايـاتِ كـان يـا مـا كـان، ليتنـا أسـطورةٌ تاريخيـةٌ، ولسْـنا بحاضـرٍ حقيقـيٍّ. صـارت أحلامُنـا كثافـةً مـن دخـان، ورغباتُنـا طيـرًا مكسـورَ الجنـاحِ. كلامنـا الصّـمتُ وأحرفُنـا الوجـعُ. كثُـر الحـبُّ ونـدَرَ اللقاءُ، ولم يعدْ يُقرَأُ إلّا في عيون المخلصين.

فـي أوطانِنـا يقـفُ الحـبُّ مصـلوبًا علـى أكتـاف العاشـقين، ينتظـرُ سـلامةَ الـوطنِ من جرحِه الغائرِ، وما أصعبَ الانتظارَ، ما أطولَه! وما أحوجنا إلى قتله.

## 25 آذار 2015

كانـت ليلـةً دافئـة فـي أواخـر شـهر آذار، فقـد أمطـرَتِ السّـماءِ حينهـا كثيـرًا، لا أدري إن كانت تبكي أم تبتهج في يوم مولدك!!

كتبْتُ لهـا فـي عيـدِ ميلادِهـا الخـامسِ والعشـرين، اليـوم قـد نضـجتِ عامًـا جديـدًا، كـلّ عـامٍ ونضـوجَكِ يحلـو ويكبـر، لكنّنـي فـي الحقيقـةِ لا أرغـبُ بالحـديثِ عـن يومِـك المميـزِ كرغبتـي فيـا لحـديثِ عـن اسـمِكِ إذ يعترينـي فضـولٌ غريـبٌ بـأن أعـرفَ إن كـان أحـدٌ مـن قبلـي قـد تغـزلَ بـه، فتكسـوني غيـرةٌ عميـاءُ كأنّهـا النّـار تلتهمُ خلايا قلبي.

لاسـمكِ يـا (بنفسـجُ) رائحـةٌ عطـرةٌ كمعنـاه فكلّمـا لفَظتـه شـفتاي أزهـرَ مـن حـولي المكـان، هـو جميـلٌ كتفاصـيلِ وجهِـكِ الفاتنـةِ، لابـل هـو كصـفاءِ روحِـك، عـذبٌ كمخـارجِ حروفِـكِ الصّـحيحةِ والدَّقيقـة الّتـي تهمّنـي، كحركـاتِ اللُّغـةِ الأربعـةِ، الَتـي تميّزهـا عـن غيرهـا مـن لغـاتِ الكـون. أنيـقٌ كالشـامةِ النّاعمـةِ الّتـي تتوسّـط خـدّكِ الأيمـن، غريـبٌ كفوضـى أيّامِـكِ، كروعـةِ حـرف V الّتـي تتوسّـط شـفتيْكِ، والشّـقّة العليـا علـى وجـه التّحديـد، لكنّـه ضـعيفٌ جـدًا أمـامَ قسـوةِ هـذه الحـربِ، يـا بنفسـج.يتيمٌ أمـام الكـمِّ الهائـلِ مـن الرَّصـاصِ الخـارجِ مـن بنـدقيّات المتحـاربين، حزينٌ أمام ظلمِ البشر.

- كنـتِ قـد سـألتني مـرةً: "مـن هـو الكاتـب؟ ولمـاذا يكتـب؟"، ولـم أعطـكِ جوابًا.
- قلـتُ لكِ:"اكتشـفي مـن هـو وأخبرينـي، ولكنّنـي اليـوم أرغـبُ بـأن أجيبَكِ على ما سألتِه".
- الكاتبُ يا بنفسج هو تاجرٌ بالمشاعرِ.
- أجـل..! الكتابـة هـي فـنٌ مـن فنـونِ التّجـارة، هـي اسـتيرادٌ وتصـدير، فالكاتـبُ الّـذي يعشـق لا بـدَّ لـه أن يكتـبَ فيقـرأُ عشـقه الآخـرون، وأنـا عنـدما أعشـقُ، أنـزفُ وجعًـاً فيبكينـي القـرّاء، ولـذلك، فـإنّني تـاجرٌ أُصدِّرُ ما أشعرُ به، فيستوردُه منّي قليلو التّعبير.

- الكتابـةُ لـذةٌ، شـغفٌ، وبيـعٌ، فـلا تكـوني بائعـةَ مشـاعرٍ يـا بنفسـج، ابقـي كمـا أنـتِ، رائعـةً، فاتنـةً، متمـرّدةً، عفويّـةً، فوضـويّةً، وغامضـةً، فأجملُ ما فيكِ الغموضُ، وأجملُ مافيكِ هو بنفسجُ يا بنفسج".

اتّصـلت بـي فـي السّـاعةِ الواحـدةِ بعـد منتصـفِ الليـل..كـان صـوتُها رسـميًّا وحادًا إلى حدٍّ ما كصوتِ جائعي اللّيل.

- قالـت وسـكون اللّيـل يعتريهـا:" ألـو، مرحبًـا، هـل هـذا هـو رقـم بـائع المشاعر؟"
- أجبتها:" نعم، سيدتي، تفضلي".
- مـن فضـلكَ، هـلاّ أرسـلتَ لـي رطـلًا مـن القـبلات، مـع باقـةٍ مـن الحنـين، والكثيرِ الكثيرِ من الحبِّ.

كنـتُ أضـحكُ بصـمتٍ، كانـت كأنّهـا طفلـةٌ فـي الثّامنـةِ مـن عمرِهـا تطلـبُ مـن بائع الحلوياتِ مجموعةً من السّكاكر الملوّنةِ والمنوّعة.

- قلت لها:" أجل، بالتّأكيد، هل تريدين شيئًا آخرَ سيدتي؟"
- قالت:" نعم، أريدُ أيضًا قصيدة شعرٍ رومانسيّة".
- حسناً، سأرسل ما طلبْتِ حالًا، هلّا أعطيتني العنوانَ من فضلك.
- أجـل، سـجّلْ عنـدك ( مدينـةُ الحـبِّ، شـارع القلـب الظـامئ، بنـاءُ الـرّوحِ، طابق أشتاقُك).
- نعم، سأرسلُها حالًا، نحن في الخدمةِ دائمًا.
- ردّت، وبحّـةُ ضـحكتِها لـم تخطئْهـا أذنـاي، شكـ.. شـكرًا، هـلّا قمـتَ أيضًا بإرسالِ الفاتورةِ من فضلِك، كم ثمنَها يا تُرى ؟
- لا شيءَ سيّدتي، صوتُكِ فقط.
- فقط؟!
- وابتسامتُكِ أيضاً.

لا شـــكّ أنّهـــا ابتسَـــمتْ وقتـــذاك الابتســـامةَ الّتـــي يرغبُهـــا قلبـــي، إنّنـــي علـــى يقـــينٍ تـــامٍّ أنّهـــا ابتســـمَتْ، فظهـــرت غمازتاهـــا، وفـــاتني مشـــهد عشـــقٍ لا يوصـــف، للأســـف لـــم أســـتطع أن أرســـلَ طلبيتهـــا علـــى وجـــه الحقيقـــة، فأرســـلتها علـــى وجـــه المجـــاز. لـــم يكـــن ليمنعنـــي حينـــذاك وقـــتٍ متـــأخرٍ أو مســـافةٍ كبيـــرة، لـــم يمنعنـــي شـــيءٌ ســـوى عاداتٍ وتقاليدَ، وجيران محيطها الثرثارين.

إنَّ أجمـــلَ مـــا بـــكِ يـــا بنفســـج أنـــكِ ترجعيننـــي طفـــلًا، طفـــلًا يحبـــو نحـــو حبـــكِ حبـــوًّا، تثيـــرين بـــي كميـــةً هائلـــة مـــن المشـــاعرِ المتفرقـــة، تعطـــينَ وتمنعـــينَ فـــي آنٍ واحـــد، فأتعطشُ إليكِ أكثر وأكثر.

لـــم يحـــدث يومًـــا أن كـــان خـــوفي يســـبق خطـــواتي، هكـــذا هـــي الحيـــاةُ صـــارت، كـــأن تمشـــي وتشـــعرُ بخطـــواتٍ خلفَـــك، فتلتفـــتُ وتجـــد ظلّـــك، ظلّـــكَ الّـــذي يشـــبه وحشًـــا شرسًا يتبعك.

كســـا الحـــزنُ حـــاراتِ العاصـــمة، ومقاعـــدَها، ومســـاجدَها، وأقبيتَهـــا، وصـــرنا نحلـــم بيدٍ حانيةٍ نغمرُها في وسْطِ تلك الشّوارع.

الحـــبّ فـــي الحـــرْبِ لـــه نكهـــةٌ خاصّـــةٌ لا تشـــبهُ أيّ حـــبٍّ فـــي أيّـــامِ السّـــلمِ. يتعـــذّرُ اللّقـــاءُ كثيـــرًا، ويجـــفُّ القلـــبُ شـــوقًا وانتظـــارًا. هـــذه هـــي العاصـــمة الّتـــي تَغنّـــى بهـــا الشّعراءُ، وغَنَّت لها فيروزُ. ركامٌ محتضرٌ يلفظُ أنفاسَه الأخيرةَ.

قضـــيْتُ معظـــم أوقـــاتي وأنـــا إمّـــا أن أنتظـــر أو أن أكتـــبَ، وكـــان لهـــا الحصّـــةُ الأكبـــر ممّـــا أكتـــب، غيـــر أنّنـــي كنـــت ناقمًـــا علـــى كـــل مـــا يحـــدث، علـــى السّياســـة والمخطّطـــات، علـــى البشـــر الّـــذين يتســـاقطون كـــأوراقِ الشّـــجر بـــلا أدنـــى أهمّيّـــة علـــى الّـــذين رخصـــت أرواحُهـــم فتحوّلـــت إلـــى مقايضـــاتٍ ومـــزاداتٍ علنيّـــة. كنـــت ناقمًـــا علـــى نفســـي الّتـــي تشـــاهدُ كـــلّ تلـــك الأحـــداث مستســـلمةً، راضـــخةً، و متواطئةً مع الذلّ.

كانـــت العاصـــمة الّتـــي تحتضـــننا، وصـــارت تفرّقُنـــا. المـــوتُ والهجـــرةُ صـــارا أحاديـــثَ النّـــاسِ لـــيلًا نهـــارًا مـــن دون أن يلتفـــتَ أحـــدٌ لـــدموعها المختبئـــةِ خلـــفَ كـــلِّ قوّتِها.

لمـــاذا يتوجّـــبُ علينـــا المغـــادرة دائمًـــا؟، لمـــاذا علينـــا أن نجمـــعَ ذكرياتِنـــا فـــي صندوقٍ حزينٍ ونرحلَ عندما يشتدُّ الظلمَ نحو عالمٍ آخرَ مجهولٍ ومتعبٍ؟

ما أصعبَ أن تُرغمَ على الاختيارَ بين أمرين أحلاهما مُرٌّ.

## 24 نيسان 2015 (فركة أذن)

اســـتيقظتُ صـــباحًا علـــى خبـــر اســـتدعائي إلـــى فـــرع المخـــابراتِ، للتّحقيـــقِ معـــي، وتبـــيّن لـــي أنّ طلـــب الاســـتدعاءِ هـــو بســـببِ مقـــالٍ لـــي نشـــرْتُه فـــي إحـــدى الجرائـــد المحليّـــة، وقـــد أخبرنـــي الجنـــديُّ المكلّـــفُ بضـــرورةِ الـــذّهابِ وحـــدي، وبكامـــلِ إرادتـــي وإلّا ســـيتمُّ إرسـالَ مجموعـــةٍ تقتـــادني إلـــى الفـــرعِ بـــالقوّةِ. فكـــرتُ مليًّـــا بالموضوع، فأخبرْتُ بنفسجًا، وذهبْتُ بكامل إرادتي كما أرادوا.

بقيـــت يومًـــا كـــاملًا فـــي زنزانـــةٍ انفراديّـــةٍ مـــن دونِ أن يكلّمنـــي أحـــدُهم أو يعيرنـــي أيّ اهتمام، وكم خشيتُ أن تطولَ المدّةَ، وأبقى هكذا منفيًا كظلِّ شجرة.

فـــي صـــباحِ اليـــومِ التـــالي اقتـــادوني إلـــى مكتـــبٍ للتّحقيـــقِ، قـــال لـــي الضّـــابط:" كيـــف كانت ليْلتُك؟"

- قلت:"أنتم أعلمُ بها".

- " حقـــك علينـــا إســـتاذ فـــارس، تأخّرنـــا عليـــك بـــس عنـــا ضـــغط كتيـــر، بتعـــرف إنـــتَ وضع البلد كيف، وفي مندسين كتير".

- هززْتُ رأسي قائلاً:"هممم، أعرف".

- قـــال لـــي:" مـــارح طـــوّل عليـــك بعرفـــك تعبـــان". إســـتاذ فـــارس إنـــتَ كاتـــب جيّـــد ومحبوب من الجيل الجديد، بس شو بدّك بالسياسة، خليك بالحبّ والشّعر."

- قلت: لم أفهم.

- قــال بنبــرةٍ حــادّة: "مــا حبينــا مقالــك الأخيــر، كــإنّو.. كــإنّو هــا كنــت متقــل العيــار فيه شوي".

- قلت: "لم أكتب إلّا ما حدث".

- ثــمّ قــال بلهجــةٍ حازمــة:" برجــع بقلــك مــا رح طــول عليــك، ونحنــا ســامحناك بــس بلالــك السياســة، وبمــا إنّــك قريــب مــن الشــباب، فبــدنا تــزرع براســهم غيــر هالكلام الفاضي وإلّا..".

- وإلّا ماذا؟

- وإلّا رح نزعل.. رح نزعل من بعض كتيير.

كنــت أتقطــع فــي صــمتي، أعــرف أن الضّــمائر قــد بيعــت منــذ زمــنٍ طويــل، لكــن كنْتُ أتساءلُ، هل الأقلامُ أيضًا جاء دورُها كي تُباع؟

نــاولني هــاتفي مبتســمًا بخبــثٍ، وقــال:" أمانــة.. أمانــة هــا تســلملنا علــى الآنســة بنفســج وتقلّهــا تــدير بالهــا علــى حالهــا وعلــى أبوهــا. أبوهــا رجــال طيــب بــس مابــدنا يــأثر عليهــا بأفكــاره". ثــمّ غمزنــي، واســتطرد قــائلًا:" بــدنا أفكــارك يلــي بتشــبهنا تأثرعليهــا، وحــاولوا توصــلولوا بطريقــةٍ مــا إنّــو يلتــزم بالمنهــاج يلــي حددتــه الجمهوريّــة، وبــلا مــا يفــرد عضــلاته بتــاريخ عــارٍ مــن الصّــحّة أحلــى مــا يشــوف عضــلاتنا"، وأنهــى حديثَــه أو للأصــح تهديــده قــائلًا بصــوتٍ شــبه مرتفع، ونبرةٍ حادّة:" الله معك".

خرجْــتُ أتخــبّطُ فــي زحــام الشّــوارع، أنتقــلُ مــن رصــيفٍ إلــى آخــر، مســترجعًا كــلّ مــا دار بينــي وبــين ضــابط الأمــن. تــذكّرت روايــةَ الجــدرانِ الملطخــةِ، والثــوراتِ، وأســبابَ قيامهــا، وأبطالَهــا، وكــلَّ كتــب التّــاريخِ الّتــي حفظناهــا صــغارًا عــن ظهــر قلــب. تمنيّــت أن أمحــوَ مــن ذاكرتــي كــلَّ أزمنــةِ التّــاريخِ مــن عصــرها الأُمــويّ وحتّــى عصــرها الحــديث. وددْتُ أن أصــرخَ فــي الشّــارع بمــلءِ صــوتي (اتركــوا أولادَكــم فــي البيــوتِ نــائمين ولا ترســلوهم إلــى المدارس).

أمسكتُ هاتفي وأغلقْتُه، كنتُ أشعر بأنّني أجبنُ مَنْ مشى على هذه الأرضِ، وبأنّني لا أستحقُ أن أمسكَ قلمًا وأكتبَ به إن كنْت لا أستطيعُ أن أدافع عمّا كتبت. كنْت أشعرُ بأنّني ضعيفٌ، بأنّني لا أستحقُّكِ يا بنفسجُ، لأنّني لن أستطيعَ أن أحمِيك منهم.

وتساءلْت: ما الحكمةُ من أنّنا خُولدنا في دولٍ عربيّةٍ تفتقدُ لكلِّ مقوّماتِ الحياةِ والحريّاتِ، وتمارسُ القمعَ والاستبدادَ؟

تذكّرْتُ عبد الرّحمن الكواكبيّ ونضالَه الكبيرَ، وكتبَه أيضّاً الّتي تُدرّسُ من دون الأخذ بمحتواها.

ما العبرةُ من التاريخ إذًا؟

انتهى بي المطافُ بالعودةِ إلى المنزلِ ماشيًا على قدميّ من دونِ أن أشعرَ، كان يجبُ أن أتجاوزَ كلّ هذا الألم، وأمضي نحوكِ يا بنفسج، لكنّني هشٌّ وضعيفٌ، ولا قدرةَ لي على مواجهةِ عينيكِ.

وجدْتُها تنتظرني أمامَ المبنى بعينيْن لاهفتيْن، ظلّت تنتظرُعودتي بقلبٍ صابرٍ ومؤمنٍ بحتميةِ عودتي. لقد شاخ قلبُها انتظارًا. كبر ذلك القلبُ الطّفلُ على غفلةٍ منها، كبر قبلَ أوانِه، وقبلَ أن يستأذنَها حتّى.

- قلتُ لها:"الحبُّ لايموتُ، لكنّه يولدُ شيخًا".

عارضتني كعادتها قائلةً:" بل الحبُّ لا يشيخُ إنّما يولدُ طفلًا".

ضحِكْتُ بعد تعبٍ، وتمتمْتُ" كقلبكِ تمامًا".

- وهل تراني طفلةً؟
- لا، أرى قلبَكِ الطفل، أمّا أنتِ.
- أمّا أنا، فماذا؟
- طفوليّةٌ وعفويّةٌ إلى حدِّ الخوفِ عليك، ناضجةٌ ومنطقيّةٌ إلى حدّ الهروبِ منكِ. لديكِ مخالبُ حبٍّ، غالبًا ما تؤذينني بها، لكن سرعانُ ما تطبطبين على جراحي بهمساتِكِ النّاعمةِ. تراهنين دائمًا

علـــى طفوليّتـــك، وتخبّئـــين هـــذا النّضـــجَ الكبيـــرَ خلـــف تلـــك العيـــونِ الشاحبةِ.

- وهل عليّ أن أبقى منطقيةً طيلة الوقت؟
- كـــلا، عليـــكِ أن تحـــافظي علـــى الاثنـــين معًـــا بشـــرط أن تأخـــذي منهمـــا بميزان تدبرك.
- وكيف؟
- امممم، كيف؟

أمّـــا فـــي الحـــبّ فلتحبـــي بمنطـــقٍ، ولتتصـــرّفي بحـــبٍّ، ولا تحبـــي بعواطـــفَ وتتصرفي بمنطقٍ، فيأتي حبُّكِ جامدًا، ساكنًا وصلبًا لا يلين.

المنطـــقُ لايحتمـــلُ الفرضـــيّاتِ وغيـــرُ قابـــلٍ للتّغييـــرِ، فمـــثلًا واحـــد +واحـــد = اثنـــان لاخيارٌ ثانٍ أمامنا لأنّ نتيجتَه صحيحةٌ انطلقت من براهينَ ومسلّماتٍ.

- وهل يمكنُ للحبِّ والمنطقِ أن يجتمعَا يا فارس؟
- إنّهما محضُ ضدين.
- نعم يجتمعان إن أحسنّا موازنتهما.
- ممم أجل، سؤالي الأخير

أنـتَ بصفتُكَ كاتبٌ تكتبُ المشاعرَ، كيف تحبّني يا فارسُ؟

- أحبُّكِ بمنطقٍ يا بنفسجُ، وأكتبُكِ بمشاعر.
- لا تكتبْني يا فارس، قلْتُ لك قبل هذا، إيّاكَ أن تكتبني فتبيعني.

**العاصمة – حزيران - 2015**

هـــو الخـــوفُ، هـــو الإحســـاسُ بـــالعجزِ فـــي وطـــنٍ يجعـــلُ كـــلَّ مـــا فيـــك مكـــبّلًا ليظـــلَّ صـــوتُكَ مقموعًـــا، وقلمُـــكَ مبتـــورًا ومكســـورًا.هو القمـــعُ، هـــو التّســـلطُ، هـــو الاســـتبدادُ الّـــذي ســـكنَ خلايـــا البشـــرِ والحجـــرَ، فاســـتعمرَ البيـــوتَ ومؤسســـات

الدولــةِ. هــو الــذّنبُ، هــو النّــدمُ، هــو الألــمُ الّــذي ســيبقى يقتُلُنــا جميعًــا فيمــا بعــد إن كنّا نملكُ ضمائرَ حيّةً.

الإنســـان يتعمّـــدُ ارتكـــابَ الشَّـــرِّ كمـــا يقـــول أرســـطو، لكـــن هـــل هـــذا يعنـــي أنّنـــا جميعُنا سيّئون، لكن بقلوبٍ جيدة؟

لعلّنا نكونُ كذلك.

ما الحبُّ يا فارسُ؟

أن يغزونـــي صـــوتُكِ ووجهُـــكِ فـــي أقســـى لحظـــاتي، وهـــاهي لحظـــاتي الممتلئـــة بـــكِ لا تنفـــكُّ تغـــادرُني، وتـــرحمُ ضـــعفي وكســـري، وهـــا هـــو صـــوتُكِ، ووجهُـــكِ الّـــذي يغزوني طيلةَ النّهارِ فما يرحل عنّي.

المــوتُ هــو الكــائنُ المجهــولُ الّــذي ظــلَّ يقــذفُ بنــا نحــو الهاويــةِ مــن دون كلــلٍ أو ملل.

كيف وهذه لعبته وملهاته؟

لــم يخــلُ مكــانٌ فــي العاصــمة إلّا وطالتْــهُ قذيفــةٌ مــا أو رصاصــةٌ عــابرةٌ تركَــت أثرَها في جسدٍ ضعيفٍ أو حائطٍ هرمٍ لتبقى ذكرى صامدة عبر الزّمن.

أن تنــامَ وتحلــم بغــدٍ جديــدٍ جميــلٍ ومشــرقٍ ذلــك أصــعب مــايكون، ففــي كــلِّ صــباحٍ مــوتٌ جديــدٌ ولــوائحُ لأســماءَ تُعلّــقُ علــى جــدرانِ القلــبِ فتبقــى غُصّــة. كومــةُ أشلاءٍ عصيّةٌ على النسيانِ والغفرانِ أيضًا.

كــان حزيــرانُ أســودَ، ظلّــتِ القــذائفُ تهاجمُنــا طيلــةَ اللّيــلِ مــن أمــاكنَ نجهلُهــا، لكنّها كانت تتقصدنا.

الغريــبُ فــي هــذي الــبلادِ أنّ النّــاسَ اعتــادُوا المــوتَ، فمــا عــادوا يخافونــه. تــراهم يقفــون أمامَــه كاشــفي الصّــدور لاســتقباله، لكــنّ مــوتَهم هــذا فــي النّهايــةِ يبقــى غــدرًا وخطفًــا مهمــا ادّعــوا تقبُلَــه. تمامًــا كمــا خُطفــتِ يــا بنفســجُ، وبــثَّ نبــأُ استشــهادك بخبرٍعاجــلٍ علــى شاشــةِ التلفــاز الّــذي كــان منطفئًــا، بســبب انقطــاعِ الكهرباءِ لمدّة يوميْن متتاليين.

بهــذه البســاطة سُــرقتِ منّــا، بقذيفــةٍ عــابرةٍ، بــاردةٍ، وقــذرةٍ، قطعَــتْ كــلَّ تلــك المسافاتِ نحوَكِ إلى جامعتِكِ، ومقعدكِ المتكئةِ عليه تحديدًا.

- أيُّ حربٍ هذه؟
- أيُّ لعنةٍ أصابَتْ هذه المدينة؟
- وأيُّ جنونٍ أصابَ عقولَ ساكنيها؟

الحــربُ هــي لغــةُ الضّــعفاءِ الّــذين لا قــدرةَ لــديهم علــى المواجهــة، والقتْــلُ هــو وســيلتُهم الوحيــدةُ فــي التّعبيــر عــن ضــعفِهم. أن تقتــلَ هــذا يعنــي أنّــك ضــعيفٌ، وجبانٌ، ولا تملكُ لغةَ حوارٍ واضحةٍ ومنطقيّةٍ.

ركضــتُ أتكــئُ علــى خــوفي، وخيبــةِ أملــي، ونحيبــي المتحشــرجِ بــالآلامِ فــي حلقي، أتصلُ فأجدُ هاتفَك مغلقًا، والّذي ما زال حزينًا ومغلقًا.

فــي الطّريــق كنــت ألهــثُ أيّامَنــا، وأطــردُ جميــعَ الأفكــارِ السّــيئةِ الّتــي تفــرض نفســها أمــامي. كنْــتُ أخشــى الفــراقَ، والفقــدَ، وكــلَّ احتمــالاتِ بُعــدَكِ، فكيــف أتقبّلُ الموتَ الآن؟

وجــدْتُكِ جثــةً هامــدةً محترقــةً فــي أحضــان والــدكِ. الخســارةُ فادحــةٌ لكلينــا، فكيــف أقنعُه وأطبطبُ على وجعِهِ؟

كيف أخبرُه أنّ الدّنيا الّتي في عينيّ قد انطفَأَتْ كما انطفَأَتْ دنياه؟

مَــنْ ســيطبطبُ علــى وجعــي أنــا؟ ويقنعُنــي أنّ الحيــاةَ ستســتمرُ وأنّ الحــرّبَ ستنتهي؟

هذي البلادُ مأتمٌ ما عادَت تصلحُ للعيشِ.

تركت ظلّي يعانقُ جثّتَها، وتلحّفْتُ الصّمْتَ والألمَ.

**تورينغن – ألمانيا – 2016**

فــي الحــربِ تســقطُ أجســادٌ كثيــرةٍ لنســاءَ، وشــيوخٍ، وأطفــالٍ، وشــبّانٍ، ورجــالٍ، ووحدَها الأرواحُ تبقى لتتعانقَ في مكانٍ آخرَ.

لملمـــتُ بعـــدَ رحيلِـــكِ كـــلَّ أوجـــاعي، وتركْـــتُ تلـــكَ الـــبلادَ المتخبّطَـــةَ بمآســـيها، وهـــا أنـــا هنـــا، وحـــدي ألملـــمُ بقايـــاي الّتـــي بقيـــت. هنـــا فـــي هـــذا الـــوطنِ البـــاردِ، المقصـــيّ، والمنفـــيّ مـــن خارطـــةِ وجـــودكِ. هـــذا الـــوطنُ الّـــذي احتضـــنَ أشـــلائي المتنـــاثرةَ، لأنّني لاجئ حربٍ.

تخيلـــي صـــرتُ لاجئًـــا يـــا بنفســـجُ. أنـــا لـــم أخنـــكِ، ولـــم أكتبـــكِ لأبيعـــكِ. أنـــا اليـــومَ أكتُبُـــكِ لأُخلّـــدكِ. فلتســـامحيني يـــا بنفســـجُ، لأنّـــكِ أعمـــقُ بكثيـــرٍ مـــن أن أتخطـــاكِ من دونِ كتابةٍ.

لقاء
و
وداع
رشا مرعي

## لقـــاء ووداع

اشتقت إليكَ بعددِ خيباتي منك ..
افتقدتك يا حبًّا لم تكتمل ولادته بعد ..
لأنّه أسفًا قد أُجهض في بداياتِ أشهره،
ولم تكتمل أجزاءه ..
نُفِخت به الرّوحُ وما لبثت أن غادَرتْه.

رشا مرعي

يـــا لروعـــة هـــذا الصّـــباح! اســـتيقظت نشـــيطة علـــى غيـــر عـــادتي، متلهّفـــة جـــدًا لرؤيتـــك، لســـماع صـــوتك، لتأمّلـــك. الشّـــمس أشـــعّتُها قويّـــة لا أســـتطيع فـــتح عينـــيّ، لكن، أين الشّمس؟ ربّما كان نور طيفك.

خرجـــت مـــن المنـــزل مبتســـمة، لكـــلّ شـــيءٍ، لـــلأرض و السّـــماء و حتّـــى لجـــدران المنـــازل، حتّـــى لتلـــك العجـــوز الّتـــي لطالمـــا كرهْـــتُ نظراتِهـــا المســـتفزّة لـــي، ولذاك الرّجل الخمسيني الّذي لا أعرفه.

دقّـــات قلبـــي تتســـارع، أخيـــرًا وصـــلت، رأيتـــك واقفًـــا قبالـــةَ البحـــرِ، تقـــدّمت نحـــوك بخطـــوات بطيئـــة، وقبـــل أن أنطـــق بكلمـــة لأُنبّئـــك بمجيئـــي، ســـبقتني والتفـــتَّ إلـــيّ و بـــادرت أنـــت بالتحيّـــة. جلسْـــنا علـــى صـــخرةٍ قبالـــة البحـــر، و كانـــت هـــذه رغبـــة كلانـــا بعـــدم الجلـــوس فـــي مكـــان مغلـــق، ســـألتني مـــاذا أودّ أن أشـــرب، فأجبتـــك بأنّي أريد شوكولا ساخنة.

تبادلنـــا الأحاديـــث، والضّـــحكات، والنّظـــرات، تأمّلتـــك وتـــأمّلتني، أمســـكت بيـــدي فتســـرّب الـــدِّفء إلـــى جســـدي، فالأحاســـيس لا تُعطـــى إلّا لإنســـانٍ لا يكـــرّره الزّمان. ربّما لم أعطهِ الفرصة.

بعـــد مـــرور شـــهرٍعلى اللّقـــاءِ الأوّل أخبرنـــي أنّ لديـــه كلامًـــا يريـــدُ أن يطلعنـــي عليـــه، لـــم آخـــذ الموضـــوع علـــى محمـــل الجـــد. عنـــد الثّانيـــة عشـــرة ظهـــرًا أرســـل لـــي رســـالةً، واتّفقنـــا أن نلتقـــي فـــي الواحـــدة. لـــم أكـــن متحمّســـة، حتّـــى إنّنـــي لـــم أضـــع مستحضـــرات التّجميـــل، واكتفيـــت بالقليـــل مـــن أحمـــر الشّـــفاه، والعطـــر. قبـــل الموعـــد بنصـــف ســـاعة اعتـــذر عـــن الحضـــور. لـــم أكتـــرث للأمـــر، وضـــعت الهـــاتف جانبًـــا، وبقيـــت مـــع صـــديقاتي نتنـــاول الأحاديـــث. فـــي الواحـــدة، أرســـل لـــي رســـالة " تعـــالي أنـــا بانتظـــارك". مـــن غضـــبي منـــه، لـــم أجبـــه، راح يتّصـــل، ويرســـل الرّســـائل، تكلّـــم مـــع صـــديقاتي، لكنّنـــي لـــم أبـــالِ. انتظرنـــي ثـــلاث ســـاعات ونصـــف علـــى أمـــل أن آتـــي. بعـــد المحـــاولات العديـــدة اســـتجبت، وذهبـــت. كـــان

غاضبًا، فكّرت بأن أعود أدراجي، غير أنه أمسك بيدي، وراح يعاتبني، لكنّي وجدت الحجّة جاهزة "أنت قلت أنّك لن تأتي، فهل تراني لعبة بين يديك."

موعد عودتك جاء، وكنت أمشي، وأجرّ ورائي حلمًا، وأمنية تحققت منذ أكثر من خمسة شهور، يا الله لقد عاد إليّ، وأعاد البسمة إلى أيّامي. وصلت إلى غرفتي، تسبقني همسات روحي، كيف سأبتدئ الكلام؟ وكيف سأعبّر له عن شعوري، وعن معاناتي في غيابه. اتّصلت به، قلت له:" اشتقتك، افتقدتك، أحبّك". استمرّت مكالمتنا خمس ساعات، و آخر ما سمعه قبل أن ينام كان صوتي، كنت سأنسى، لقد طلبت منه أن يغنّي لي.

مشاجراتنا لاحقًا كثرت، لكنّني أشعر بالحنين إليه. لقد جرحتني كلماته، فقد اقتحمت خلايا قلبي وفتكت به. التزمْت الصّمت إلى أن انفجَرْتُ بوجهه البارحة، أجل انفجرت، أخرجْت ما في جعبتي من عتبٍ ولومٍ. كانت ردّة فعله قاسية أكثر ممّا توقَعْتُه، "هل تريدين منّي الخروج من حياتك؟ لا جواب، إذًا سأرحل."

كنت أعرف إجابتي، فأنا لا أريد ذهابه. تبًّا لكبريائي، وتبًّا لأسبابي. لم أستطع إلّا أن أهاتفه، وأقول له: "ابق".

في اليوم التّالي، جلسْنا، تبادلنا الأحاديث، عن الطّفولة، عن العائلة، وكأنّنا لأول مرة نتعارف. أخبرْته عن لعبتي المفضّلة، لعبة أحلام اليقظة، الّتي من خلالها نتعرف على اسم فارس أحلامنا، وعدد أولادنا، موطننا.

كان هناك ما يشدّني إليه، ربما لأنّني كنت ومازلت أعشق الرّجلَ الذّكيّ، وأكثر ما أكرهه هو الرّجل الضّعيف.

إنّها الرّابعة والنّصف فجرًا، الطّقس غاضب، متمرّد على سكون الفجر، كما لو أنّه ثورة شعب، وعلى الرّغمِ من انخفاض درجة الحرارة غير أنّ جسدي كان يشتعل نارًا. لم تتعب السّماء، فمنذ ساعة أو أكثر وهي تذرف

دموعًـــا غزيـــرة، وكنـــت أشـــعر بـــأنّ أحـــدهم يلـــفّ حـــبلًا حـــول رقبتـــي. كـــان الوقـــت لا يمـــرّ، وكـــأن الأرض امتنعـــت عـــن الـــدوران، لأنّ أكثـــر مـــا كـــان يـــؤلمني أنّنـــي رفعْت سقف توقّعاتي كثيرًا، بقدر خيبة أملي بك.

# العنقاء

## ولادة جديدة

رويدا قاسم

## العنقـــــاء

كالعادة، أُمارس كبريائي على من يهوى قلبي،
ثمّ ألجأ إلى قلمي لِأُمارس معه علاقة غير شرعيّة،
كُلُّ شيءٍ فيها مُباح،
أكون بها أضعف مما يجب وأعبّر عن أسراري ومشاعري.

رويدا قاسم

تتمــاوجِينَ بــين كُــل دقــائقِي وأنــا لا أشــعر، يغمُرنـــي طيــفُ حنانــكِ تــارةً ويقتلنـــي الشّــوق تــارةً أخــرى، إنَّــهُ يُــتم واحــد، جعلنــي يتيمــة حتّــى مــن نفســي، يُــتمَ أُمّــي، الّــذي بــدأ ينخــر بــي، يســحبني بقــوّة إليــه ثــمّ يــدفعني. اليُــتم الّــذي لــن يفهمَــهُ أحــدٌ ولن يشعر بهِ أحدٌ مثلي.

فكــرة أن تفقــد كُــلَّ مــا تملــك فــي يــومٍ واحــد لا يســتطيع المــرءُ اســتيعابها، فــي دقيقــة واحــدة لتعــيش بعــدها عُمــرًا مــن الألــم، لِتتــنفس وجعــاً علــى ذكــرى قاتلــة، فكيــف لــي أن أُنجــبَ صــغارًا، ويهــاجمني الخــوف مــن أن أَورِثَهُــم أشــدَّ مشــقّة فــي الكــون، المَشَــقة الّتــي تُميتنــي كــلّ يــوم مــن دونِ دفنــي، لِأقــاومَ مــن جديــدٍ مــا لا يُحتمل.

كُنــتُ فــي الثّالثــة عشــرة مــن عمــري عنــدما تُوفّيــت أُمّــي، مازلــتُ أذكــر ذلــك الثّــوب الأبــيض الّــذي التَحفَتــهُ عنــد نومتهــا الأخيــرة، عنــد إغماضــة جفنهــا إلــى الأبد.

ذلــك الأبــيضُ أعمــى عينيــيّ اللتّــين لــم تعــودا تريــا فيــهِ إلّا كــلّ شــيءٍ حــزين، .يبــدو أنّ الأيّــام فــي غيابهــا كــان واضــحًا دربُهــا، منــذُ أن غَــالبْتهم لِأُودِّع أمّــي فــي ربــع السّــاعة الأخيــر، لِأُقَبِــلَ يــديْن ســأُحرمُ مــن حنانهمــا إلــى الأبــدِ، لِأُخــزّنَ من رائحةِ أمّي ما أستطيعه، لتعطيني القوّة على متابعة حياتي.

مــرضٌ لعــين تغلغــل فــي جســدها، غَالبَتــهُ، وحاولــت الانتصــارَ عليــهِ، لكنّــه كــان أقوى منها، وأكل جسدها الجميل.

اليُــتم الّــذي يخطــو معــي دائمًــا رفيقــي، فقــد اســتعار شخصــيّة والــدي وظــلّ يحتضــنني فــي كُــلِّ مــرّة أشــعرُ أنّنــي بحاجــةٍ إلــى صــدر أبــي، لِأرمــيَ أوجــاعي في دِمائه، ليتبدّل الحزن إلى ذرات أوكسجين مليئة بالعطف.

حــاولَ يُتمــي أن يُشــعِرَ أبــي بالــذنب، عســاهُ يضــمّني، لكنّــهُ بــاء بالفشــل، لــم يمنحْني والدي إلّا عناقًا واحدًا، وندمتُ بعدها ندمًا شديدًا.

في مرّة شعرْت بقسوة والدي، بعد أن وبّخني على خطأ كان في سن مراهقتي، فاتّهم حضني له بالزّور والرّشوة، فهو يخاف عليَّ بِقسوة تتحكّم بتصرّفاته. يُحبّني كثيرًا، لأنّني أُنثاه الوحيدة المتبقيّة لهُ.

أبي لا يعلمُ بكلّ هذا، يجهلُ العالمَ المتخبّطَ الّذي أعيشُهُ في كلِّ يومٍ، لا يفهم ارتجاجات قلبي ليلًا، وأنا أشهق أنفاسي مخنوقةً بحبّات التّرابِ الّتي هزمت أمّي وتمتّعت ببقاياها، فنام التّرابُ مع جثّتي، وانتقمَ من دموعي.

أمّا أبي فبات ينامُ كلّ ليلةٍ يفكّرُ بالعيشِ الهنيء المتواضع، احتياجات البيت ومستقبلي وأخوتي الاثنين.

لم ينتظرْ أبي إلّا ثلاثة أشهر على فراق أمّي، وقرّر الزّواج. كان يطمحُ بإمرأةٍ صالحةٍ تُسقيني شيئًا من حنان الأمّ، وتُلبّي حاجات البيت، لكنّها سقتني وجعًا، فكبرت مئة عام.

مسكينٌ والدي، ظنَّ أنّه سيجد من تشبه جوهر أمّي، لكنّه لم يجد ما كان يظنّه.

سبعةُ أعوام، أحفظُ ساعاتِها، دقائقَها، ثوانيها، وبصماتِها الّتي لا تُمحى مهما مضى من سنين. كانت لا تعاملني بشكّل جيّد، تنتقم من حاجتي لرفيقٍ يُعوّضُني عن أمّي، تنتقمُ من حُبِ أبي لي. سيطرت غيرتُها، فولدَّت الحقدَ والخبث بدلاً من أن تنجبَ لنا ولنفسها طفلًا صغيرًا يُهدئ أجواءَ البيت ببراءته كُلما عصفت فيه النيران.

كانت حياتي عبارة عن صراخٍ بصراخٍ، لم يملؤها إلّا الشّجار والأصوات العالية أستيقظُ من نومي بهلع، أتخيّلها فوق رأسي تهجم عليَّ لتخنقني من عنقي، تغرز أظافر يدها حتّى تتلون بدمائي. زاد حقدُها، فجنّ أبي وشعر بأنّهُ سيفقدني، فاستصعب خسارة حياتهِ مرتين "أنا وأمي"، فقرر تطليقها.

قــرّر أبــي الــزّواج مــرّة أخــرى، ولــم أســتطع أن أمنعــه، لكنّنــي كنــتُ أخــاف مــن أن يتملّكنــي الماضــي مــرّة أخــرى وأعــاني مــن جديــد، لكــن إن كانــت هــذه المــرّة سيئة فسأترك منزل والدي.

يــا لتفاهــة القــدر وتفاهــة حيــاتي، فقــد صــارت الــدّنيا بأكملهــا ســوداء فــي عينــي، فـــلِلأوّلِ مـــرّة مُنـــذُ ســـنين تمتلكنـــي رغبـــة شـــديدة بـــأن أصـــطدم بشـــيء يفُـــوقَني حجمـــاً، يـــدفعني أرضـــاً بأقصـــى قُوتِـــهِ، أصـــرخ، أنـــزِفُ لعلّنـــي أطـــردُ كـــلّ مـــا فـــي جوفي تحت مُسمى"مشاعر وعاطفة".

بعيــدًا عــن كــلّ الأمنيــات المؤجّلــة، فأنــا لــم أحــظَ بقلــبٍ صــادق وشــريك روحٍ يســندني، لا أملــك إلّا قلبــي ونفســي التــي لا أحــد يســتحقهما ســواي، لكــن، ولكــي تــزداد الأمــور تعقيــداً، فلقــد أحببــت، ولكــن مــن طــرفٍ واحــدٍ، مــا اســتدعى علاجي من مرضٍ لعينٍ حلّ في جسدي.

فــي البدايــةِ كُنــت أعتبــره الرّفيــق المفضــل، إلــى أن شــعرت باهتمــام غريــب منــه، لكنّي ابتعدت عنهُ مدّة، ولجأتُ إلى قلمي.

كنــت أعتبــره الأقــرب إلــى قلبــي والمميــز بــين الجميــع، مــع علمــي بــأنّ لــه حبيبــة. أرغمــت نفســي علــى الابتعــاد عنــهُ، فمشــاعره ليســت لــي، فالحــبّ مــن طــرفٍ واحــدٍ غيــر مجــدٍ. لقــد خبّــأتُ تفاصــيلَه الّتــي أحفظهــا، خمّــرتُ رائحتــه فــي رئتــيَّ، لكنّنــي قــرّرت الابتعــاد عنــه، فأنــا لــن أكــون يومًــا مــا حبيبتــه، مــع شــعوري بالغُصّــة، لأنّنــي لــم أحــظَ بحبّــه واهتمامــه، لكنّنــي كنــت أتوهُمــه وأتــوهمُ بأنّــه يبادلُني هذا الحبّ.

# كرامة.... للبيع

سارة البيطار

# كــرامـــة للبيـــع

**ما أبلغ الصّمت، وما أعظم تأثيره حين يبوح بما عجز الكلام عنه!**

**ينقلب حال الشّاب في لحظة، يعود طفلًا صغيرًا أمام الدّموع الّتي تتلألأ في عيني والدته**

**وملامحها الّتي تشي بكلّ شيء.**

**سارة البيطار**

كرامةٌ للبيعِ، كرامةٌ للبيع.

وقـفَ فـي السّـوقِ الممتلـئ بالنّـاسِ والباعـة، حيـث بـدأ المـارّةُ يتجمهـرون حولـه، كمسـتعمرةِ نمـلٍ وجـدَتْ جـبلًا مـن السّكر،وشـرع يصـرخُ كـالمجنونِ. كـان صـوتُه كجسـدٍ مُـدمّى مـن التّعـذيبِ والتّنكيـلِ. راحَ يصـرخُ ويجهـشُ بالبكاءِ"كرامة للبيع، كرامة للبيع".

فجـأةً، ومـن دونِ سـابقِ إنـذارٍ، خلـعَ قميصَـه الملـيءَ برائحـةِ السّـمكِ، وبقـي (بفانيلتـه) المتسـخةِ مـن العـرقِ، وأيـدي الرّجـالِ الّـذين حـاولُوا تهدئَتَـهُ، والإمسـاكَ بـه مـن دونِ جـدوى. راحَ يطـوفُ السّـوقمن أوّلـه إلـى آخـره مـردّدًا الجملـةَ ذاتَهـا. لـم يتوقّـفْ لحظـةً واحـدةً حتّـى لأخـذِ أنفـاسٍ جديـدةٍ غيـرِ تلـك الممتلئـةِ غبـارًا موجعًـا، جعـلَ العديـدَ ممّـن رأوه يشـعرون بمـزيجٍ مـن الرّثـاءِ لحالِـهِ، والسّـخطِ علـى هـذا الشّـابِّ الوسـيمِ، فكيـف يصـلُ إلـى هـذا الـدّركِ الأسـفلِ من السّفاهةِ؟

القليلـون مـنهم تفهّمـوا أنّـه قـد يكـونُ فـي حالـةٍ هسـتيريّةٍ لسـببٍ قـويّ لا محالـة. كـان السّـوقُ شـديدَ الازدحـامِ فـي الأسـبوعِ الأخيـرِ مـن شـهرِ رمضـانَ، إذ يتسـابقُ النّـاس فـي هـذا الوقـتِ لشـراءِ الملابـسِ، والأحذيـةِ، والحلويـاتِ، ومسـتلزماتِ الاحتفـالِ، لكـنّ سـلوكَه الغريـبَ جعـلَ منـه عرضًـا جماهيريًّـا لا يُفـوّتُ حتّـى لأولئـك الّـذين كـانُوا فـي أشـدِّ تـأهّبهم لإنجـازِ الكثيـرِ فـي وقـتٍ قصيرٍ.

شـابٌّ عشـرينيٌّ، بعينـيْن حمـراوين، يلهـثُ ويبكـي.تـرى أيـن غابَـت شـرطةُ البلديّةِ تأخذُ هذا المعتوه إلى مكانٍ آخر؟

- قـال بعضُـهم:" ألا يوجـدُ مـن يعـرفُ هـذا الشّـابَّ، ويمنعُـه مـن هـذا الهراء ؟".
- قالت جماعةٌ أخرى، وغيرُها أقاويلَ كثيرةً.

كــان بعضُــهم يقــفُ لبرهــةٍ ثــمّ يمــرُّ، والــبعضُ الآخــرُ يلاحقُــهُ خطــوةً بخطــوةٍ، فهــا هـــي امـــرأةٌ طويلـــةُ القامـــةِ ترتـــدي ملابـــسَ ســـوداءَ، وإيشـــارباً أبـــيضَ تختـــرقُ الجمــعَ المحــيطَ بالشّــابِّ، وتقتــرِبُ مــن أُذْنِــه، وتهمــسُ بينمــا يصــيحُ بــائعُ الفلافــل: " الحمدلله، ها قد أتت والدتُه".

وعلـــى عكـــس توقّعـــاتِ الجميـــعِ بأنّهســـيهدأُ عنـــدما يراهـــا، فقـــد أكلـــه الغـــيظ، وراح يصرخُ بوجهها.

- أذهب معكِ، إلى أين؟ ألستِ سعيدةً الآن؟ ها أنا أعرضُها للبيعِ؟

راحتِ المرأةُ تبكي ممسكةً بابنِها، تحاولُ شدَّهُ لحجبِه عن المارّةِ.

- بُنيّ، حبيبي، ماذا بكَ؟

يبعدُها عنه كحشرةٍ تتوسّلُ بإذلالٍ.

- لم هذه الفضائح، تعال معي إلى البيت.

- فضائح.

يصـــرخُ بـــأعلى صـــوتِه، ملوحًـــا بيديْـــه كبـــائعي الخضـــارِ عنـــدما ينـــادون علـــى بضاعتهم.

- يـــا نـــاس، يابشـــر، هلمّـــوا إلـــى الأمّ المصـــون، تقـــول إنّـــي أفضـــحُها، لماذا؟ لأنّني أعرضُ بضاعتَنا علنًا للبيع؟

تنتحـــبُ الأمُّ متضـــرعةً لابنِهـــا مـــن دونِ جـــدوى. تحـــاولُ إرغامَـــه، ليـــذهبَ معهـــا، وينهـــي مهزلتَـــه الّتـــى يجتمعُحولهـــا النّـــاسُ متفـــرّجين كعـــادتِهم أمـــامَ هـــذا النّـــوعِ مـــن المآســـي، حيـــث يتحوّلـــون إلـــى منـــدوبي أخبـــارٍ يتـــابعون الحـــدثَ الّـــذي ســـينقلونه فيما بعد إلى بيوتِهم، وعوائِلِهم، ثمّ إلى قريبِهم وبعيدِهم.

راح الشّابُّ يتابعُ صياحَه ممسكًا بيدِ أمّهِ بعصبيّةٍ.

- أليســـت هـــذه هـــي اليـــدُ الّتـــى تســـتخدمينها لبيـــعِ كرامتِنـــا، هـــا أنـــا أســـاعدُكِ، أوليســـت هـــي اليـــدُ الّتـــي تنتظـــرُ حســـناتِ النّـــاس، إذًا فلتشـــهدوا أيّهـــا البشـــرُ،

اشــهدوا، أمّــي لا تطلــبُ حســنةً مــن أحــدٍ، لكنّهــا تجلــسُ هنــا تنتظــرُ المحســنين ليروها، فيتكرموا "بأجاويدهم" السّخيةِ.

يطالعُهــا بــائعو المحــلّات الّــذين يرونهــا تجلــسُ بقــربِهم يوميًّــا. بعضُــهُم يزدريهــا، والبعضُ الآخرُ يُشفقُ عليها، ويتكرمُ عليها بما فاضَ من رزقِه.

كانــتِ الأمُّ منــذُ وفــاةِ زوجِهــا تبحــثُ عــن أي عمــلٍ كــي تســاعدَ عائلتَهــا، لكــن مــن دون جــدوى. لــم يتــركْ لهــا الــزّوج ســوى "فلوكــة صــغيرة" ومنــزلٍ مســتأجر هــو ســبب خوفِهــا الأكبــرِ. كانــت حياتُهــا تُختصــرُ عنــد هــذا القلــقِ الدّائمِعنــدَ نهايــةِ كــلِّ شــهرٍ، فقــد بحثــت تلــك الأمُّ كثيــرًا كــي تجــدَ مــا يعيــلُ أســرتَها، فزوجُهــا الصّــيّادُ المعــروفُ فــي المنطقــةِ كــان مســالمًا طــوال عمــره، ويعــيشُ حياتَــه يومًــا بيــوم، لكنّــه أصــر علــى تعلــيم ابنــه وابنتــه ليرفعَــا رأسَــه عاليًــا كــالنّجومِ المتلألئــةِ، الّتــي كــان مــدمنًا علــى تأمُلِهــا ليليًّــا. كــان يخبــرُ زوجتَــه كــلّ يــومٍ بأنّهمــا سيصــيران جزءًا من السّماء.

لــو يعلــمُ الآن كيــف هــوى ابنــه إلــى قــاعِ البحــرِ، ذاك الّــذي حلَــم بــأن لا يلقــى المصــيرَ ذاتَــهُ. لكــم عــانى مــن البحــرِ أهــوالاً كلّمــا ثــارَ عليــه مــن دونِ أن يعــيَ بأنّــه رجــلٌ أعــزلُ، لــيس لــه ضــمانٌ صــحيٌّ، أو دولــةٌ تســندُ أمثالَــه مــن الميــاومين الّذين يكافحون بجسدٍ عارٍ، وقلبٍيجاهدُ النّبضات.

لــم يتــركْ ديونًــا، وكــذا لــم يتــركْ مــا يســندُ تلــك العائلــةَ لمتابعــةِ مــا ســعى إليــه. لــم يعلــمْ أنَّ الحيــاةَ لــن تنتظــرَ أمثالَــه كــي ينجــزوا مهمّــاتِهم، أصــابَتْه حمــى غريبــةً ذات شــباط، عــاد فيــه مــن الصّــيدِ كتلــةً محمومــةً. يومهــا بكــتِ السّــماءُ تضــرعًا مــن أجــل الرّجــلِ الّــذي صــار طفــلًا. ارتفاعٌبــالحرارةِ، والتهابٌبالقــدمِ الّتــي تضــاعفَ حجمُهــا ووزنُهــا فــي وقــتٍ قصــيرٍ حتّــى باتــت تعــادلُ مطرقــةَ حديــدٍ ضــخمةً، يومهــا انتقــلَ الالتهــابُ ســريعًا إلــى سائرِجســدهِ الّــذي ظــل يقــاومُ مــن دونِ أسلحةٍ حتّى الرّمقِ الأخيرِ.

كــان موتُــه كارثــةً حلّــت بالعائلــة. لــم يُســمحْ للزّوجــةِ أن تعــيشَ حزنَهــا كمــا يجــبُ، فقــد حــلَّ الخــوفُ مكانَــه، وســيطرَ عليهــا حتّــى بــات القلــقُ صــديقَها الأوفــى. فــي البدايــةِ بحثــت عــن فرصــةِ عمــلٍ فــي الخدمــةِ المنزليّــةِ مــن دونِ جــدوى. لا أحــدٌ يجــازفُ بتوظيــفِ امــرأةٍ كبيــرةٍ فــي السّــنِّ. فمــا كــانَ منهــا إلّاأن تبيــع العلكــة الّتــي راحــت تجــولُ بهــا فــي السّــوقِ إلــى أن عــرفَ ابنُهــا بــالأمرِ، يومَهــا حمــلَ البضــاعةَ ورماهــا فــي حاويــةِ القُمامــةِ، ثــمَّ أقســمَ أن يتــركَ الجامعــةَ، ويباشــرَ العمــلَ فــي قــارِب أبيــه. راح يــتعلّمُ كيــف يحبــكُ الشّــبكَ مــن أصــحابِ والــدهِ الّــذين شــجّعوه كثيــرًا، وعــابُوا علــى أبيــه تركــه مــن دونِ أن يكتسِــبَ خبــرةَ الصّــيدِ، فدعموه، وأعطوه من خِبراتِهم.

علــى الــرّغمِ مــن توسّــلات أمّــه لــه بــأن لا يتــركَ الجامعــةَ،فهو لــم يعــد إلــى الجامعــةِ، وظــلّ فــي مهنــةِ العــذاب، لكــنَّ الأحــوالَ لــم تتحســنْ كثيــرًا، فخيــراتُ البحــرِ كانــت شــحيحةٍ، وهــو لــم يكــن ســوى صــيّادٍ متــدرّبٍ. كــان يقنــعُ الآخــرين بأنّــه سيتحسّــنُ يومًــا بعــد يــوم، وأنّ البحــرَ ســيثِقُ بــه، ويمنحُــه ثرواتِــه لاحقًــا عنــدما يثبــتُ جدارتَــه، ومــا علــى عائلتِــه ســوى الصّــبرِ والتّقشّــفِ حتّــى يبلــغَ الصّيّادُ المراهقُ نضوجَه في هذه المهنةِ.

تتهالــك الأمُّ، تجلــسُ علــى كرســيٍّ لبــائعِ الخضــارِ الّــذي يقــفُ أمامَهــا، يكــادُ يُغمــى عليهــا مــن الجَلــد الّــذي يمارسُــهُ عليهــا هــذا الابــنُ الجــائرُ، تمســكُ بــه فــلا يرحمُهــا حتّى بنظراته، تهمسُ بصوتٍ مختنقٍ

- بني، تعال معي إلى البيتِ، أفعلُ ما تأمرُني به، لكن تعالْ.

- قلــت انتهــى، كفانــا تمثــيلًا، كفانــا تجــارةً فــي الخفــاء، لــن أذهــبَ إلــى أيِّ مكانٍ، سأبيعُ كرامتَنا على الملأ، وبأعلى سعرٍ.

تلطــمُ المــرأةُ وجهَهــا، تــركضُ إلــى اللّحــامِ الّــذي يعرفُهمــا تســتنجدُ بــه، ليعينهــا فــي إقناعِــهِ بمرافقتِهــا. يُبعــدُ الرّجــلَ بعنــفٍ، ثــمّ ينهــرُ والدتَــه بســخطٍ واشــمئزازٍ.يجرُّ أمّــه بيــدِها كطفــلٍ مــذنبٍ، يقفــان فــي زاويــةِ ســاحةٍ بعيــدةٍ، يتشــاجران، لا أحــدَ

يجـــرؤ مـــن الاقترابمنهمـــا، تتـــنفسُ الأمُّ الصّـــعداءَ، تعتقـــدُ أنّهـــا فـــي هدنـــةٍ إذ ابتعـــدَ ابنُها عن عيونِ النّاسِ الّتى جرّدَتْهما من كلِّ احترامٍ.

لحظاتٌ تمرّ، فتهوي آمالُها من جديدٍ. صراخٌ مفاجئٌ.

- ماذا تريدين منّي الآن؟ ألا يكفيك ما فعلتِ؟
- ماذا فعلت يا بني؟
- مـــاذا فعلـــتِ؟ ألـــم أمنعْـــكِ مـــن أخـــذِ معونـــاتٍ مـــن أيّ أحـــدٍ؟ ألـــم أتـــركْ جـــامعتي وأعملْصـــيّادًا مكـــان أبـــي، لكـــي أؤمّـــن حاجتـــك أنـــتِ وابنتـــك؟ لم تبيعي كرامتنا إذاً؟
- أنا، من قال ذلك؟

تبتلـــعُ الأمّ ريقهـــا بصـــعوبة، مـــن قـــال؟ لا أحـــدٌ، لقـــد ســـمعْتُهم يتهامســـون، يحملـــون مجلّـــةً تحمـــلُ صـــورتَكِ أنـــتِ ومجموعـــة النّســـاء اللّـــواتي ركضْـــن متهافتـــاتٍ علـــى المســـاعداتِ الّتـــى قـــدمتْها السّـــيّدة نهـــاد، هـــل تعتقـــدين أنّ هـــذا كـــلّ شـــيء، هـــل حقًّـــا أتـــألّمُ لأنّهـــم قـــالوا إنّـــك مسـكينةٌ، وإنّـــه لـــو كـــان لـــك رجـــلٌ يعينـــكِ ويحميـــكِ لِمـــا قبلـــتِ بهـــذا الـــذّلِّ. ليـــتَهم اكتفـــوا بهـــذا القدر،فلقـــد قـــال أحـــدُهم:"ألا تعلـــم أنّهـــا تجلـــسُ يوميًّـــا أمـــام دكّـــان اللّحـــام (أبـــو أحمـــد)، لكـــي يراهـــا المحســـنون فـــي رمضـــان، فتجمـــعَ مـــا يعادلُ راتبَ موظّفٍ أو أكثر.

تبكـــي الأمُّ بصـــمتٍ، فـــي حـــينِ يلـــفُّ رأسَـــها دوارٌ وانكســـارٌ. لـــم يعـــدْ لأيّـــةِ كلمـــةٍ أهميـــةٌ الآن. هـــذه الكراهيّـــةُ الّتـــي تراهـــا فـــي عينـــيّ ابنهـــا أكبـــر مـــن أيّ شـــيءٍ يمكـــن أن يقـــال، تتـــذكرُ بكاءَهـــا منـــذ أيّـــامٍ عنـــدما كُســـرت عصـــا ممســـحتها. شـــيءٌ ســـخيفٌ، لكنّـــه آلمَهـــا بشـــدّةٍ إذ إنّهـــا تـــوفّرُ كـــلّ ليـــرةٍ ثمنًـــا للطّعـــام، تتـــذكّرُ اســـتيقاظَ ابنتِهـــا وقـــتَ السّـــحورِ مـــن دونِ وجـــودِ شـــيءٍ تأكلُـــه. جميـــع النّـــاس يأخـــذون مســـاعداتٍ مـــن هنـــا وهنـــاك، فلمـــاذا لا تظهـــرُ صـــورُهم؟ لمـــاذا اختصّـــها المصـــوّرُ هـــي وحـــدَها؟ ولمـــاذا يراقبُهـــا النّـــاسُ فـــي جلوسِـــها المســـتكينِ. لـــم تكـــن تحتـــاجُ

لأكثـــرَ مـــن بعـــضِ النّقـــودِ لمســـاعدةِ ابنهـــا الّـــذي يعـــودُ بـــبعضِ الليـــراتِ منهكًـــا، وهي ما عادت كسابقِ عهدها لمساعدتِهِ في العملِ.

مـــا أبلـــغَ الصّـــمت، ومـــا أعظـــمَ تـــأثيرَه حـــين يبـــوحُ بمـــا عجـــزَ الكـــلامُ عنـــه! ينقلـــبُ حـــالُ الشّـــابِّ، فـــي لحظـــةٍ.يعـــودُ طفـــلًا صـــغيرًا أمامَالـــدّموعِ الّتـــى تـــتلألأُ فـــي عينـــيّ والدته وملامحها الّتى تشي بكلّ شيءٍ.

يـــنكّسُ رأسَـــه ويمشـــي، فتتبعُـــه هـــي بخطـــواتٍ متســـارعةٍ. كانـــت تلـــك المـــرّةُ آخـــرَ مـــرّةٍ تخـــرجُ فيهـــا مـــن المنزلِ،غابـــت عـــن العيـــونِ بينمـــا كـــان الشّـــابُّ يقتصـــرُ خروجُـــه علـــى المقهـــى، والمنـــزلِ، والبحـــرِ. لـــم يعـــرفِ النّـــاسُ ســـببَ عـــرْضِ الشّـــاب كرامتِـــه للبيـــعِ حتّـــى اليـــوم، ســـوى القلائـــل، فقـــد اعتقـــدُوا أنّهـــم اســـتنتجُوا أســـبابًا منطقيّـــةً علـــى الـــرّغمِ مـــن أنّهـــا أبعـــد مـــا تكـــون عـــن الحقيقـــة، لكـــنّهم استراحوا إذ وجدوها مقنعةً، شافيةً لفضولِهم القاتلِ.

غربتان
طلال دادو

# غـربتـــان

**الحياة أشبه بفيلم سينمائيٍّ حقيقيٍّ رتيبٍ مفرطٍ في فوضويّته يحتاج للكثير من الأخطاء الفادحة للخروج من رتابته، فلا تحاول عبثًا أن تأخذ دورًا فيه.**
**استمتع بالمشاهدة فقط.**

**طـلال دادو**

اشـــتاقها، أتـــدري روعـــة أن تشـــتاق إلـــى شـــخصٍ لـــم تلتـــق بـــه؟ أحلـــم كثيـــرًا، وأتصـــوّر لنـــا أكثـــر مـــن بدايـــة، والكثيـــر مـــن اللّقـــاءات المختلفـــة، ربّمـــا ســـألقاها فـــي محطّـــة الحـــبّ (شـــارل الحلـــو)١، وأركـــض نحوهـــا مســـرعًا، وهـــي تبـــادر بالسّـــرعة ذاتهـــا، احتضـــنها ونغـــرق فـــي صـــمت، ثـــمّ أمـــام أعـــين البشـــر المليئـــة بالفضـــول أُقبّلهـــا بشـــوق، فتجتاحنـــا الطّمأنينـــة ويقتلنـــا السّـــكون، وربّمـــا ســـترافقني أمّي، فأستحي من وجودِها، وأعدّل عن فكرة تقبيل المنتظرة.

ربّمـــا لـــن يكـــون لـــي علـــم بقـــدومها حيـــث أقـــيم، وعنـــد عـــودتي مـــن العمـــل يبـــاغتُني صـــوتُها وضـــحكتُها مـــن خلـــف البـــاب، بينمـــا أنـــا أطرقـــه بهـــدوء كعـــادتي ثـــلاث طرقـــات لا أكثـــر، ثـــم أســـمع أمّـــي تقـــول مـــن خلـــف الباب:"إنّـــه حبيبُـــكِ"، فـــأغرق في صدمةٍ ثمّ تفتحُ لي البابَ، فأشهق أكاد لا أصدق ما أرى.

هل ابتسم القدر، وكتب لنا لقاءٍ بعد طول انتظار؟.

لكـــن، كـــل مـــا ســـبق لـــم يحـــدث، وكـــل مـــا حـــدث لـــم يســـبق أن حـــدث كمثلـــه قبـــل ذلـــك، اللّيـــلُ كـــان طـــويلًا وكئيبًـــا، لـــم يـــنم، وعلـــى الـــرّغم مـــن بـــؤس اللّيـــل وظلامـــه، غيـــرَ أنّـــه كـــان فيـــه شـــيءٌ مـــن النّـــور، يخـــرجُ مـــن خلـــف شاشـــة هـــاتف محمـــول، ظـــلِّ مـــن الغســـق حتـــى حلـــول الصـــباح يحادثهـــا، إلـــى أن انتفخـــت عينـــاه وعيناهـــا.
لم يسمح لنفسه ولها بالنّوم خوفًا عليها من روّاد الاستراحة والمقيمين.

قـــد تبـــدو كـــلّ المصـــائب الّتـــي تحـــدث فـــي هـــذا العـــالم منطقيّـــة، ومـــن الممكـــن إيجـــاد حـــلٍّ لهـــا مناســـب، ولربّمـــا ستنســـى بعـــد ســـاعةٍ أو ســـاعتين مـــن لحظـــة انقضـــائها، إلّا أن تفارق أمٌ فلذة كبدها.

انقضـــى شـــهر رمضـــان، وجـــاء عيـــد الفطـــر، ومـــازالوا يحـــادثون حامـــدًا وطفليـــه مـــن خلـــف شاشـــة هـــاتفٍ حمقـــاء، فحامـــد هـــو ولـــي عهـــد العائلـــة، وقـــد اضـــطر للبقـــاء فـــي بلـــده، وتحديـــدًا فـــي ريـــف حلـــب، حيـــث لا يوجـــد مـــن يجبـــره علـــى

الخـــروج مـــن القريـــة، وذلـــك بســـبب بلوغـــه الثّامنـــة عشـــرة، وعليـــه أن يلتحـــقَ بالخدمـــة العســـكريّة بحســـبِ قـانون الدّولـــة المُلـــزم لكـــلّ مـــن تجـــاوز هـــذا السّـــنّ مـــن الشّـــباب. راحـــت أمّ حامـــد تبحـــث لـــه عـــن عـــروسٍ تليـــق بـــه، وتعتنـــي بـــه فـــي غيابهـــا، لكنّهـــا لـــم تكـــن تـــدري أنّ العـــودةَ شـــبه معدومـــة، وأنّهـــا لـــن تســـتطيع لقـــاء ابنِهـــا إلّا فـــي حـــالِ تخلّـــت عـــن أبنائهـــا الآخـــرين، وفـــي كـــلّ مـــرّة كانـــت تحـــاولُ فيهـــا نســـيان الأمـــر، تعطيهـــا الحيـــاةُ أمـــلًا فـــي لقـــاء حتمـــيّ، فتقـــول:" سأحضـــره، ولـــن اكتفـــي بمحادثتـــه تكنولوجيًـــا، ولـــو كلّفنـــي الأمـــرُ كـــلَّ مـــا أملـــك"، ولـــو أنّهـــم وضـــعوا البحـــرَ فـــي كفّـــةٍ، والشّـــوقَ فـــي كفّـــةٍ أُخـــرى لرجحـــت كفّـــة الشّـــوق، فهُـــم إلـــى الآن يلقـــون اللّـــوم علـــى طالـــب فـــي ابتعـــاد أخيـــه عـــن والدتـــه، كيـــف لا وهـــو الّـــذي عـــاد مـــن الغربـــة إلـــى الـــدّيار قبـــل ســـتةِ أعـــوام، لســـببين "الطّمـــع والحنـــين"، بعـــدما اتّصـــل بـــه خالـــه، وعـــرض عليـــه العمـــل معـــه فـــي المختبـــر، مقابـــل راتـــبٍ شـــهريّ مـــا حلـــم بـــه، فمـــا كـــان مـــن طالـــب إلّا أن يســـرع فـــي حـــزم حقائبِـــه، والمضـــي بســـرعة تجـــاه بلـــده، وعنـــد وصـــولِه لـــم يلـــقَ اســـتقبالًا يليـــق بـــه، فمنـــزل عائلـــة طالـــب بجـــوار بيـــت جـــدّه وأعمامِـــه، بـــل علـــى العكـــس فـــي اليـــوم التّـــالي تلّقـــى توبيخًـــا مـــن جـــدّه، بســـبب عـــدم إطاعـــة زوج عمّتـــه، وتلبيـــةِ طلبـــه حـــين أرســـله ليحضـــرَ لـــه علبـــة ســـجائر، فبعـــد أن صـــرخ الجـــدّ بوجـــهِ طالـــب، وصـــفعه بيـــدٍ ثقيلـــةٍ، وخشـــنةٍ، ولـــو أنّـــه ضـــربَ بيـــدِهِ علـــى ميـــزانٍ الكترونـــيٍّ لأطـــاح عـــداد الميـــزان 1000 غـــرام، فمـــا كـــان مـــن طالـــب إلّا أن يمضـــي مطـــأطئ الـــرّأس، ومكـــوّرًا كتفيْـــه حـــاملًا دموعـــه علـــى خديْـــه، ثـــمّ راح يطلـــق العديـــد مـــن اللّعنـــات نادمًـــا علـــى السّـــاعة الّتـــي جـــاء فيهـــا إلـــى حيـــث هـــو فـــي كـــلّ خطـــوة يخطوهـــا وهـــو ذاهـــب إلـــى بيـــت خالـــه، وعنـــدما ســـمعه يتمـــتم ظـــنّ أنّـــه يســـيء فـــي ألفاظـــه، فلـــم يبـــدِ أيّـــة ردّة فعـــل تجاهـــه، بـــل اكتفـــى بعبـــارة " قليـــل تربيـــة"، وعنـــد وصـــوله رآه خالـــه فتفاجأ من انتفاخ وجهه، واحمرار عينيْه، وعلى الفور، قال له:

- هل ضربك جدّك؟

- نعم، ردّ وهو يتنفّسُ بصعوبةٍ.

- ولِم فعل ذلك؟

- لأنّني لم أشترِ لزوج عمّتي علبة سجائر.

- ردّ خاله بغضب شديد "ريتا ايدو الكسر هو وجوز عمتك أنا ما طقتو من أول ما شفتو".

أضاف طالب بشفاه متلبدّة وعطشى، وعلاوة على ذلك عمّتي وزوجها يبيتان ليلهم في منزلنا.

في تمام السّاعة الحاديةّ عشرةَ من مساء ذلك اليوم، عاد طالب لينامَ في بيت العائلة الّذي يطلُّ على أرض الدّيار الواسعة، المسيّجة من الجهة الشّرقيّة، والمحاطة ببيت جدّه من الجهة الغربيّة، أمّا من الجنوب فهناك باب الدّار في الوسط، وعلى شماله غرفة ضيوف، وعلى يمينه حوض للأزهار يتوسطه نافورة مياه، وبئر عميقة، يغطيها خيال شجرة عنب تحمل الكثير من العنب الأسود، فوجد البابَ مقفلًا، وليس معه مفتاح، وهو مع جدّه، وعلى الأرجح هو من أقفل بابَ المنزل أو ربّما زوج عمته الّذي ينام في غرفة والديه، وهذا ما أثار غضبه، فراح يطرق الباب بقوّة حتّى استيقظت عمتُه، وفتحت له، وقالت بامتعاضٍ شدديدٍ: "أهلين ابن أخي شو بتريد؟".

تفاجأ من هيئتها، وسؤالها وقال: "بدي أدخل نام ببيتنا".

قالت له مسايرةً: "حبيبي روح نام عند ستّك، تدبّر أمورك هالليلة".

صُعق طالب ولم يصدق، إذ إنه يطرد من بيته بلباقةٍ. لم يستوعبِ الأمرَ، وهو احترامًا لعمّته، وخوفًا من غضبِ أبيه عليه، وخشية أن يقولوا "ما عرف يربي ابنو" لم يتفوّه بكلمة قط، بل حدّق بوجه عمّته لثوانٍ، يحاول ترجمة كلماتها واستيعاب الموقف، ثم ضبط أعصابه من دون أن يفتعل مشكلة يندم عليها لاحقًا، ومضى صوبَ بابِ الدّار.

صـــرختِ الأمُّ غاضـــبةً، وقالـــت: "لـــن أبقـــى لحظـــة واحـــدة هاهنـــا"، فالبيـــت أســـوأ مـــن أن يعـــيش فيـــه قطيـــعٌ مـــن البغـــال، وذلـــك لصـــغر حجمـــه، فهـــو غرفـــةٌ واحـــدة مســـتطيلة الشّـــكل، وموقعـــة أســـفل الطّـــابق الأرضـــي، وينبغـــى علـــى ســـاكنيه أن يأخـــذوا السّـــلالم مـــن خلـــف البنـــاء خمـــس عشـــرة درجـــة نـــزولًا للوصـــول إليـــه، وهـــو المتواجـــد فـــي مدينـــة صـــيدا، فبـــالرغم مـــن رائحـــة (الكهريـــز)٢ الّتـــي كانـــت تخـــرج مـــن نافـــذة مســـتودع بجـــوار البيـــت، وبـــاب الحمـــام الّـــذي هـــو عبـــارة عـــن ســـتارة، وإذا مـــا فـــتح البـــاب الرّئيســـي، وهـــبّ الهـــواءُ طـــار السّـــتار واتّضـــح مـــن يختبـــئ خلفـــه، فتظهركيـــوم ولـــدتك أمّـــك، غيـــر أنّهـــا تحمّلـــت وأولادهـــا بمـــا يكفـــي، قالـــت هـــذا، وهـــي تســـكب الحســـاء السّـــاخن فـــي قـــدْر كبيـــر كـــي يبـــرد، فـــي المطـــبخ الّذي لا يتّسع لأكثر من اثنين.

بـــدأت بحـــزم الحقائـــب مـــن دون توقّـــف عـــن الكـــلام، وهـــي توجّهـــه لأبـــي حامـــد:" كيف يضربونه ويشتمونه؟، وأنت لا تحرك ساكنًا، وكأنَّ الأمرَ لا يعنيك.

ظـــلّ أبـــو حامـــد صـــامتًا خشـــية أن يزيـــد الطّـــين بِلّـــة، فهـــو يعلـــم أنّ زوجتـــه إذا غضـــبت تخـــرج أســـوأ مـــا لـــديها، واكتفـــى بـــالتخفيف مـــن غضـــبها قـــائلًا: "معـــك حق".

الحـــقُّ أقـــولُ لكـــم، إذ بعـــدما عـــاد طالـــبٌ إلـــى الـــديار تبعـــه والـــده علـــى الفـــور بعـــد شـــهر مـــن ذهابـــه، وذلـــك ليأخـــذَ إجـــازة بـــلا راتـــب مـــن شـــركة النّقـــل الّتـــي كـــان يعمـــل فيهـــا ســـائقا، وحـــين عـــودة طالـــب مـــن المختبـــر، وقـــد أخبـــره ابـــن عمـــه بمجـــيء والـــده، فـــأراد أن يتفـــادى مواجهـــة والـــده خوفًـــا مـــن الشّـــتائم، والضّـــرب، والـــدّخول إلـــى بيـــت جـــدّه خلســـةً، فتفاجـــأ بوجـــوده، وهـــو يخـــرج مـــن بـــاب الـــدّار حـــاملًا بـــين يديـــه وعـــاءً كبيرًاعليـــه الطّعـــام، يحملـــه إلـــى غرفـــة الضّـــيوف لتنـــاول العشـــاء، فتســـمرّ مكانـــه مـــن دون حـــراك، وارتجفـــت قـــدماه مـــن الخـــوف، بـــدا عليـــه الذعر والارتباك، لكنّه تشجّع وقال: "حمدًا لله على سلامتك يا أبي".

ردّ عليه " أنا ابوك يا ابن ال16 كلب".

أخفض طالب رأسه، وفكّر بالشّتيمة، فإذا كان حقًّا كذلك فهذا يعني أن السّلالة كلَّها من تلك الفصيلة (الكلاب)، وقال في نفسه: " يا للمصيبة، هل هذا حقيقيٌّ، ثمّ نظرإلى الوعاء، وإلى ما يحتويه من طعام. رفع والد طالب رأسه ورقم 11 ارتسم على جبينه وصرخ، وهو يمشي نحو غرفة الضّيوف " إنت كديش ما في عقل براسك؟"، فما الّذي دفع والده إلى الصّراخ في وجهه؟

توارى أبو حامد عن الأنظار، وظلّ طالب في الخارج، ويده على رأسه، يحكّ بها شعره، يفكر ما لّذي سيفعله غير البحثِ عن عشاء، فقد كان طالب في كلّ ليلةٍ بعد انتهائه من العمل، يدخلُ إلى مطبخِ جدّته بعد أن يكون الجميع قد ناموا، ويبحث عن الطّعام، لكن هذه المرّة الجميع كانوا ساهرين، وطالب من المغضوبِ عليهم والمنبوذين.

عندما تأكل الصّفعات لا يبقى لك غيرَ حضنِ أمّك، فهو وحدَه من يستقبل مدامعك بكلّ حبٍّ وحنانٍ، فبدون أمّك تنام جائعًا، ومن دونها تمرض وتشفى من دون عناية، كأنّك في فراغ، وما من صدى لصوتك، ولا أحد إلاك، من دون أمّك تكون كقطعةٍ نقديّةٍ منتهيةِ الصّلاحيّة، كَكِتابٍ بلا عنوان صُحُفُهُ فارغة، كغرفة مظلمة، أما مع وجودها، وإذا ما أوشكت على السقوط يرتطم جسدها قبلك ليحميك، فهي الّتي إذا مرت بالذاكرة ابتسم قلبي سرًّا، وامتدّت إلى شفتيّ ضحكة خفيّة، وضاقت عيناي تشيان بوجع الفراق، ورقص فؤادي فرحًا، حتّى كأنّي أصير كمنجةً.

نظر طالبٌ في هاتفه المحمول، السّاعة تشير إلى الحاديةَ عشرةَ والنّصف قبل منتصف الليل، وهو وحدَه، لا يدري ماذا يفعل، ثم تذكّر خالتَه أمينة، وهي الأخت الكبرى بعد والدته لأربع عشرة أختًا، وأخٍ وحيدٍ، فنهض من مكانه بسرعة كأنّما وجد خلاصه، واتّجه نحو بيت جدّه لأمّه، علمًا أنّ

الخالــة أمينــة مطلّقــة، وتقـيم وحـدَها فــي ذلــك البيــت الّــذي كانــت تلتجــئ إليــه كــلّ واحدة منهن إذا حصلت معها مشكلة ما مع زوجها.

طــرق طالــبٌ بــابَ الــدّار بقــوّة، لكــن لــم يجبْــه أحــدٌ، فخطــر لــه بــأنّ الخالــةَ أمينــة نائمــة، فتســلّل إلــى الــدّار عبــر تســلّقه الحــائط، ثــم دخــل فوجــدها مســتلقية علــى فراشــها تغــطّ فــي نــومٍ عميــق، فتمــدّد علــى فــراشٍ فــي زاويــةِ الغرفــة، والنّعــاس يأكل عينيْه الذّابلتين، والجوع يأكل من معدته، ثم استسلمَ إلى النّومِ.

استــيقظ مــن نومــه عنــد السّــاعة التّاســعة صــباحًا، فســألته خالتــه عــن ســبب مجيئــه، وبعــد أن حكــى لهــا مــا حــدث معــه ليلــة الأمــس ومنــذ أن نــزل الــدّيار، فقالــت لــه بصــوت حنــونٍ: "الله لا يــوفقن ريــتن يتمرّغــو بــالخرا"، ثــمّ دعتــه إلــى تنــاول طعــام الفَطــور، فــاقتربَ طالــبٌ، وتنــاول فطــورَه، ومــن ثــمّ ذهــب إلــى العمــل. اتّصــلت أمينــة بأختهــا، ثــمّ أخبرتهــا بمــا جــرى، وبمــا حــلّ بابنهــا، معاتبــةً إيّاهــا لتركهــا ابنهــا وحيــدًا، بســبب الحــرب وأقربائــه الّــذين هــم أقســى عليــه مــن الحــرب، مضــيفةً "بنــت حمــاكي وجــوزا عــاملين بيتــك فنــدق أكــل ومرعــى وقلــة صنعة".

فــي صــباح السّــابع مــن تمــوّز ســنة 2013 وكــان أوّل أيّــام شــهر رمضــان، تناولــت عائلــة طالــب وجبــة السّــحور، ومضــت فــي طريــق لا يخلــو مــن العنــاء، مــا عــدا أبــي حامــد الّــذي ظــلّ فــي لبنــان بســبب ظــروف عملــه. بــدا الخــوف والارتبــاك علــى وجــه الأمّ، فحامــدٌ قــد بلــغ السّــابعة عشــرةَ والنّصــف، ممّــا يزيــد فــي احتماليــة أخــذه بذريعــة ســنه للقيــام بواجبــه العســكريّ، أو ربّمــا سيســأل عــن دفتــر الجــيش، فكانــت كلّمــا مــروا علــى حــاجز عســكريّ تضــطرب، وترتفــع درجــة حرارتهــا، ويصــبها هــاجس فــراق أحــد أولادهــا. كــان حامــد يســاعد ســائق الحافلــة فــي تنظــيم الرّكــاب، وجمــع بطاقــات هُويّــاتهم الشّخصــيّة وتســليمها لعناصــر الحــاجز، مــن دون أن يضــع هُويّتــه بــين الأوراق الثّبوتيّــة، فكــان يتفــادى الحــواجز بهــذه الطّريقــة. وصــلتِ الأســرة إلــى القريــة بعــد عنــاءٍ دام

خمـــس عشـــرة ســـاعة متواصـــلة، لكـــن لـــم يتوقّـــف عـــذابهم إلـــى هـــذا الحـــدّ، لأنّ وصـــولهم تـــزامن مـــع حلـــول أذان المغـــرب، ومـــا مـــن أحـــدٍ مـــن أقربـــائهم قـــدّم لهـــم رغيـــف خبـــزٍ يســـدّ جـــوعَهم، فأخـــذتِ الأمُّ تحضّـــر العشـــاء مـــع العلـــم بعـــدم تـــوافر مســـتلزمات الطّعـــام. تناولـــتِ العائلـــةُ وجبـــة الإفطـــار قبـــل منتصـــف اللّيـــل، ثـــمّ اجتمعـــت فـــي غرفـــة الجلـــوس، فكانـــت ليلـــةً حافلـــةً بالقـــذائف والصّـــواريخ الّتـــي تنهال على القرية.

قالـــت الأمّ وهـــي توجّـــه كلامهـــا لطالـــب:" أيـــن كنـــت تنـــام؟ ومـــا كنـــت تأكـــل؟ لِـــمَ أراك صامتًا؟

- عند الخالة أمينة.
- وماذا فعل خالك؟ هل وفى بوعده لك؟

ســـكت طالـــب برهـــة وتجمّـــد لســـانُه، وقـــال:" لا، لقـــد تقاضـــيت نصـــف الّـــذي وعدني به".

مـــرّت ثلاثـــة أيّـــام علـــى قـــدوم العائلـــة، والخـــالات يقصـــدن بيـــت أخـــتهنَّ للاطمئنـــان عليهـــا واحـــدة تلـــو الأخـــرى، فـــي حـــين لـــم يـــأتِ أحـــدٌ مـــن أهـــل زوجهـــا، وبينمـــا كانـــتِ الأمُّ تنشـــر الثّيـــابَ علـــى حبـــل الغســـيل الملاصـــق للحـــائط، تنبّهـــت لوجـــود صـــهر زوجهـــا، حيـــث رأتـــه مـــن النّافـــذة المفتوحـــة فـــي وســـط الحـــائط الّـــذي يفصـــل منزلهـــا عـــن بيـــت حماهـــا ونظـــره ممتـــدٌ نحـــو النّافـــذة، فوضـــعت يـــديها علـــى رأســـها تخبّـــئ فيهمـــا شـــعرها، وأخفضـــته ثـــمّ ركضـــت مســـرعة نحـــو غرفـــة الجلـــوس، وهـــي تُصِـــبُّ الشّـــتائم واللّعنـــات. نـــادت ابنهـــا البكـــر حامـــد، فخـــرج مـــن المطـــبخ، وهو يحمل بيده (سدر)٣ وجبة الإفطار وقال:" ما الأمر يا أميّ؟".

أوقفـــت الأمُّ الغسّـــالة، ورفعـــت ظهرهـــا وقالـــت:"أفي كـــلّ مـــرّة أودّ فيهـــا التّنظيـــف، يجب أن آخذ الحذر، ووضع الإشارب على رأسي وأنا في منزلي؟

ذهب حامد، وأحضر قطعة قماش كبيرة وسلكًا، ثمّ ربطها أعلى النّافذة، وأسدلها إلى أسفل، وبهذا تكون حُلّتِ المشكلة، لكنّه حجبَ النّور عن غرفة الجلوس في بيت جدّه، وقال لأمّه:"هذا ما بوسعنا فعله".

في اليوم التّالي، بعد عودة الجّد من عمله، انفجر صوتٌ شديدُ القوّة يصمُّ الآذان يقول: "من وضعَ هذه السّتارة هنا"، وكان هذا صوت الجَدّ.

فقالت الجدة: هدّئ من روعك، فهذه زوجة ياسر وضعتها،لأنّ عورتها تنكشف من النّافذة".

فصاح الجدّ مرّة أخرى قائلًا:" أنزلي هذا الشّيء يا ابنة عبد اللطيف".

فكان لا يناديهنّ بأسمائهن كي يثير غيظهن، فظلّت الأمّ صامتةً رغم أنّها سمعت كلماتِه، لكنَّ عنادَها شديدٌ، وهذا ما أدى إلى جنون الجدّ، وجعله يهيل عبارات الشّتم إثر موجة الغضب الّتي سيطرت عليه ، فقام، وقال للجدّة:" أعطني أداةً ما، واتّجه نحو منزل ابنه، وهو يردّد جملته المعهودة بصوت عالٍ "والله لألعن أبوكن يا كلاب".

في الماضي، قبل سنوات عدّة كان رجلًا ذا سطوٍ عالٍ، الخطأ ممنوعٌ عنده، ففي مجلس للعائلة من شهر كانون القاتل من شدّة صقيعه، حيث اجتمعتِ النّساء والرّجال حول مدفأة الخشب، تفقّد الأبُ ولده ياسر، فسأل الجمع عنه، أجابه عقيل: "ذهب في السّيارة لجلب المازوت من (تقاد)٤".

فقال:" إنّ في الأمر شيئًا يحيّرني، منذ متى وهو غائب؟".

حينها ظلّ الجميعُ صامتًا، أمّا هو فذهب لبيت الخلاء، تبعته الجدّة، وهي تحمل منشفةً، ففي السّابق كانت هندسة المنازل مختلفة عن اليوم، فكنّا نجد المنازل كبيرة إلى حدٍّ ما، الغرف تضمُّ في داخلها المطبخ والحمام الخاص بالاستحمام فقط، وبيت الخلاء غالبًا ما يكون في الخارج وخلف الغرف، في أثنائها عاد ياسر من عمله، ولم يتجرّأ على الدخول من الباب الرّئيسي خوفًا من مواجهة والده في المصيبة الّتي تنتظرهم أمام باب الدّار، فتسلّق

الحـــائط ليجـــد والدتـــه تقـــف بـــالقرب مـــن التّنـــور تحمـــل منشـــفة، فســـألها" أيـــن والدي؟".

فوضـــعتِ الأمُّ يـــديْها علـــى وجـــه ولـــدها تحـــاول أن تهدّئـــه، وقالـــت لـــه:" إنّـــه فـــي الحمّام".

فقبّـــل يـــدي أمّـــه بســـرعة، واحتضـــنها، ثـــمّ ذهـــب إلـــى غرفتـــه، ليـــودّع زوجتـــه وأطفالـــه. فـــي أثنائهـــا خـــرج الأب الكبيـــر مـــن الحمّـــام، فوجـــد زوجتـــه تنتظـــره، فســـألها عـــن ياســـر، فأجابتـــه" لقـــد جـــاء منـــذ قليـــل"، فتوجّـــه نحـــو بـــاب الـــدّار، وهـــو يردّد:"لقـــد قلـــت لـــه لا تـــذهب، والسّـــماء تمطـــر، وأخشـــى أن يكـــون قـــد حـــدث شـــيء، فمـــا إن فـــتح بـــاب الـــدّار حتّـــى وجـــد ســـيّارة المـــازوت ملتمـــة علـــى نفســـها كحلـــزون أصـــابه الكثيـــر مـــن الملـــح، واجهتهـــا تميـــل نحـــو اليمـــين، أمّـــا خـــزّان الوّقـــود الّـــذي أراد تعبئتـــه فـــارغٌ جـــرّاء ثقـــبٍ أصـــابه فـــي أســـفله، فهـــو يملـــك خزانًـــا للمـــازوت، ويبيـــع أهـــل القريـــة منـــه. انحلّـــت ركبتـــا الأب الكبيـــر، وانخفضـــتا نحـــو الأســـفل، ورفـــع يديـــه ووضـــعهما فـــوق رأســـه بعـــدما اصـــفرّ وجهـــه، وتســـمّر مكانـــه يحـــاولُ اســـتيعابَ المشـــهد المـــؤلم، ثـــمّ صـــرخ بصـــوت عـــالٍ:" ياســـر، تعـــال لهـــون"، فـــاهتزّتِ الجـــدّةُ مـــن مكانهـــا لصـــوته المرعـــب. حينهـــا ســـمع ياســـر صـــوت والـــده، فقفـــز مـــن مكانـــه، وفـــتح بـــاب غرفتـــه، وخـــرج وهـــو يـــركض مـــذعورًا نحـــو الحـــائط الّـــذي علـــت قفزتـــه مـــن فوقـــه مـــرّة أخـــرى، فتعثّـــرت قـــدماه عنـــدما لامســـتا الأرض، وســـقط علـــى الوحـــل. لـــم يهـــتمّ وتـــابع طريقـــه تحـــت الأمطـــار الغزيـــرة، حتّـــى وصـــل ســـاحة القريـــة، واســـتقلّ ســـيّارة لتوصـــله إلـــى المدينـــة، ومـــن هنـــاك ســـافر إلـــى دولـــة مجـــاورة، ومـــا عـــاد إلّا بعـــد غيـــابٍ طويـــلٍ، علـــى أمـــل أن تهـــدأ نار الغضب المتأجّجة في والده.

كـــان يصـــدر الأوامـــر الّتـــي تناســـب عاداتـــه وتقاليـــده، يحكـــم عائلتـــه بظلـــمٍ، يجبـــرهم علـــى العمـــل فـــي ســـنٍ صـــغيرٍ، ويـــزوّج بناتـــه وهـــنّ فـــي الرابعـــة عشـــرة، يفعـــل مـــا يحلـــو لـــه حتّـــى وصـــلت أفعالُـــه إلـــى ضـــرب زوجـــات أولاده، وقـــد ســـلب مـــنهنّ

زينـــتهنّ الذّهبيـــة فيمـــا مضـــى، وذلـــك لأنّـــه فشـــل فـــي امتحـــان دخولـــه لشـــركة الكهربـــاء، مـــا أدّى لأن يـــدفع ضـــريبة ماديّـــة، وامـــرأة ياســـر خاصّـــة، فكـــان يـــدخل عليهـــا تحـــت مســـمّى عـــدم إطاعـــة الأوامـــر والتمّـــرد، بعـــدما كانـــت زوجتـــه تقـــصّ عليـــه مـــا تفعلـــه كنتهـــا، فيضـــربها بالسّـــوط أحيانًـــا، وبالعصـــا غالبًـــا، وإن حـــاول زوجُهـــا الـــدّفاع عـــن زوجتـــه ينتهـــي بـــه الأمـــر مطـــرودًا خـــارج المنـــزل، حتّـــى وصـــل بـــه الأمـــر إلـــى ضـــربها بـــالمعول، ففقـــدت وعيهـــا إثـــر الضـــربة آنـــذاك، وهي في شهرها السّادس بولدها الثّالث عامر.

ســـمعت أمُّ حامـــدٍ كلماتَـــه، فنهضـــت، وأغلقـــت البـــاب بإحكـــام، ودعـــت أطفالهـــا إلـــى الـــداخل ليختبئـــوا. بعـــد قليـــل راح يضـــربُ البـــاب الرّئيســـيّ بقدمِـــه بقـــوّة حتّـــى كســـر القفـــل، فـــدخل رافعًـــا عباءتـــه مـــن الأســـفل، يربطهـــا بخصـــره البـــدين وكرشـــه البـــارز بشـــدّة، يحمـــل بـــين يديْـــه عصًـــا خشـــبيّةً طويلـــةً، كانـــت تعـــودُ لأداة تنظيـــف. ســـار حتّـــى منتصـــف أرضـــيّة البيـــت، وهـــو يـــدبُّ بقدميـــه، فـــنهض حامـــد علـــى قدميْـــه، ووقـــف فـــي وجـــه جـــدّه، وخلفـــه طالـــب، ومـــن خلفهمـــا أمّهمـــا، ثـــمّ قـــال لـــه:" لـــيس مـــن حقّـــك أن تتعـــدّى علـــى أحـــدٍ منّـــا فأنـــت لســـت ربّ الأس..."، وقبـــل أن ينهـــي كلماتِـــه، رفـــع الجـــدُّ عصـــاه بكلتـــا يديْـــه وضـــربه بهـــا، فأصـــابته وأخـــاه معًـــا، وكُســـرت العصـــا، وقبـــل أن يعيـــدَ الضّـــربةَ مّـــرة أخـــرى، رفـــع حامـــدٌ يـــده، وأمســـكها، وقـــال بنبـــرة أعلـــى مـــن ســـابقتها:" جـــدّي، اتـــرك القليـــلَ مـــن الاحتـــرام لنا جميعنا، واخرج رجاءً".

ردّ عليـــه بعـــدما أصـــابه القليـــل مـــن الـــذّعر باشـــمئزاز:" حســـنًا، عنـــدما يعـــودُ ذلـــك المغضـــوبُ، ســـأعيد تربيتـــه مـــن جديـــد، حتّـــى يعلّمكـــم كيـــف يكـــون الاحتـــرام"، ومضـــى الجـــدُ نحـــو بـــاب الـــدّار وهـــو ينـــزل عباءتـــه، وعنـــد وصـــوله إلـــى عتبـــة البـــاب قـــال حامـــد محـــاولًا أن يفجّـــر البركـــان الّـــذي بـــداخل جدّه:"صـــلّح القفـــل اللـــي خربته".

بالنسبة لهم كان عيشًا تحت ظلّ العزّ خيرٌ من العيش في الذّلّ ألف عام، فبالرغم من وجودِهم في ديارِهم كانوا في غربة، حيث كانت تقول الأمّ لأولادها الثّلاثة الكبار:

"أنتم قوّتي، وأنا استمدّ طاقتي منكم في مجابهة الحياة".

مضت الأيّام، وعاد أبو حامدٍ من السّفر، حيث استقبله الطّرفان بالتّوبيخ، والدُه من جهة، وأسرتُه من جهة أخرى، لكن لم يعد مهمًا من يرضي ومع أيّ طرفٍ يقف، لكن المهم هو إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فوالده غضب عليه، وزوجته ضاق ذرعها، ولم يعد بإمكانها العيش بالقرب منهم.

مرت عشرة شهور على مكوث الأسرة في القرية، لم يقتربِ الجدُّ منهم، منذ آخر مشكلة حدثت، لكنّ الأوضاع ساءت، فعلاوة على فقرهم ساءت أحوالهم أكثر، وغلت معيشتهم، إضافة إلى ذلك الحرب الغنيّة عن الحديث عنها، فلو أنّهم لم يخبّئوا بعضًا من المال في أيّامهم البيض، لكانوا الآن يموتون جوعًا. عزمتِ الأسرة النّزوح إلى لبنان مجدّدًا، أمّا حامد فمصيره الالتحاق بالجيش أوالاختباء في القرية، بعدما بلغ الثّامنة عشرة من عمره، لذا قرّرت أمُّه أن تزوّجَه من فتاة ذات سمعة طيّبة، لتكون له درعاًفي غياب أسلحته، أمّا طالب وعامر فجمعا ثيابهما القديمة، وأخذا بها إلى سوق الباليه وباعاها، وجنيا منها ثمن سفرهما.

**المنتظرة**

هو لا يعرفها ولم يرها إلّا من خلال صور على الهاتف المحمول، ربّما سبق أن رمقها بنظرة وهما طفلان، و لم يذوقا طعم المرِّ يومًا، انتظرها عامًا كاملًا حتى تنهي عامها الدّراسيّ، عامًا فائضًا بالحبّ إلى حدّ الجنون، على الرّغم من عدم رؤيتهما لبعضهما البعض، غير أن روحهيما تعانقتا في نسائم الحبّ، وكانتا خليطًا من العشق الرّوحي الممزوجِ بالفراق اللّعين،

وعندما حان وقت اللّقاء ذهبت أمّه لتحضرَها من مكان إقامتها في أواخر شهر تمّوز، ولشراء ما تحتاجه من تجهيزاتِ حفل الزّفاف.

بعد أن انتهتا من شراء ما تحتاجه، سارت بهما سيّارة الأجرة، برفقة أمّها ليلتقين هناك مع المحامي لاتمام معاملة الزّواج في الدّوائر الحكومية. بعد انقضاء معظم وقتهن وهن في طريقهن إلى العاصمة، وصلن مع حلول أذان المغرب، وحجزن غرفة في أحد الفنادق في ساحة المرجة. عند الصّباح انطلقت أمّ مهاب برفقة الفتاة نحو المحكمة الشّرعيّة، كما اتفقت مع المحامي، حتّى ينهوا بعض المعاملات والأوراق المطلوبة، وعند وصولها لم تجده بانتظارها، حاولت الاتّصال به لكن من دون جدوى، اتّصلت به على خطه الثاني، الهاتف يرنّ، لكنّه لا يرد، وهذا ما جعلها في حيرة من أمرها، ولا تدري ماذا تفعل، فعادت إلى الفندق، محملة بأسئلة ليس لها أجوبة تدور في رأسها، فاضطررن للمبيت ليلة أخرى في الفندق، فعزمتِ الأمّ تأجيل الإجراءات الزّوجيّة إلى وقتٍ لاحقٍ، وتواصلت مع سائق بولمان كانت قد تعرّفت عليه في سفرها السّابق، ليقلَّ الفتاة ووالدتها ويعبرون الحدود، أمّا هي فعادت إلى البلد المضيف بطريقة أخرى. عند وصولهنّ إلى الحدود، ظلّتِ الأمُّ منتظرة في الاستراحة إلى أن يخيّم الظّلام، فطريقها مختلف عن مسارهما، على الرغم من ذلك فقد رافقهما قلب الأمّ إلى حيث هما ذاهبتان، فهذه هي المرّة الأولى الّتي تدخلان فيها إلى لبنان، وذلك بحجز فندقيّ كان قد نظّمه السّائق بعدما اتصلت به أمّ مهاب قبل يوم.

جلس مهاب على الأريكة، وحنى ظهره إلى الأمام واضعًا زنديه على ركبتيه، ويديه فوق رأسه. الهواجس تكاد تقتله، أسيلتقي بها ويفكك قيود البعد بوصلٍ؟ أم أنّ البعد سيتمدّد إلى أمدٍ لا يعرف نهايته؟ هو لا تهمّه

المسافة الّتي بينهما، فالأهمّ هو الحبّ، فلقد قالت له ذات مرّة: "لا تغرّك المسافة يلي بيناتنا، المهمّ إنّك تبقى حبيبي".

نهض على قدميه، وبدأ يمشي في غرفة المعيشة من جهة إلى جهة، تارة على الشّرفة وأخرى يجلس وظهره يسند الحائط، حتّى راح يَعُدّ البلاط من فرط الملل، ووالده ينظرُ إليه من بعيد ولا يستطيع فعل شيء. بعد مرور وقت رنَّ هاتفُ والده، كان ذلك سائقُ البولمان يطمئنهم بأنّ الأمّ وابنتها ستعبران الحدود، كما قال والده نقلًا عن السّائق، ابتهج فؤاد مهاب بعدما سمع ماقاله، وراح يحلَم كيف سيكون لقائهما الأوّل؟ كيف سيبدأ؟ هل بنظرة تأمّل كلاهما الآخر؟ على الأغلب سيفرك عينيْه للتّأكّد من أنّه لا يحلم، وأنْ ما يحدث من المؤكّد أنّه يحدثُ، لكنّه، صحا من أحلامِه بعد سماعه صوت موسيقى كئيبة، كانت تصدرُ من هاتفه المحمول، أخرجه من جيبه بسرعةٍ، ونظر إليه، ثم قال:"وأخيرًا".

كانت حبيبته، وقبل أن يجيب، قال: " يارب يكونوا سمحوا لهم بالدّخول، يارب يكونوا سمحوا لهم بالدّخول".

فاليوم صارت الدّول تشدّد على دخول الوافدين إليها، لاجئين كانوا أو ضيوفًا للسّياحة والتّسوّق، على الرّغم من ذلك فقد كان الهاربون خوفًا من الموت جوعًا، أو تحت الرّكام، أو من سجون التّعذيب يدخلون عن طريق الجبال الّتي تفصل ما بين الدّولتين العربيّتين، ليبحثوا عن لقمة عيشهم في بيئةٍ لا ترأف بحالهم، فمنهم من قضى نحبه وكان الثّلجُ كفنه، من شدّة البرد، وهناك من كانت رصاصة ليليّة كفيلةً لتوفر عليه ما بقي من حياته، ربّما كانوا يهربون من أنفسهم، لكي لا يواجهوها بحقيقة أنّهم موتى على قيد الحياة.

ردّ على الهاتف، فسمع صوت والدة حبيبته وهي تجهش بالبكاء، وتقول: "يا ابني ما فوتنا، الضّابط، قلنا اِرجعوا على بلدكم".

لم يصدق ما سمعته أذناه، ولم يدرِماذا يفعل، أراد مهاب أن يهدّئ من ذعرها، لكن من دون جدوى، فأخذ السّائق الهاتف من يد الوالدة، وقال: "الو".

- نعم، من أنت؟

- أنا سائق البولمان، اسمعني جيّدًا الضّابط لم يسمح للأمّ وابنتها بالعبور، وأمرهم بالعودة.

ردّ مهاب بصوت عالٍ، مشمئزاً من صوته:"لماذا؟"

فردّ السّائق ببرود أعصاب، وكأنّ الأمر لا يعنيه:" على الأرجح أنّه لم يعجب بهيأتهما"، وهذا ما جعله يفور من غضبه كالبركان، وبدأ يشتم ويلعن، وهو يرميها عليه وعلى الحدود.

- قال السّائق محاولًا تهدئته:" أنا لا أستطيع فعل شيء، إضافة إلى ذلك، ماذا عن نقودي المتبقيّة؟

جاءه الرد:" هذا ما يهّمك، نلتقي في بيروت، وأوفّيك أجرك".

- سأحضر معي أمتعة السّفر، أسلّمك وتسلّمني.

اتّجه مهابٌ ووالده نحو بيروت، وعند وصولهما حكى والده للسّائقين الّذين يعملون في الشّركة ذاتها ما جرى مع الفتاة وأمّها، فقال له أحدهم:" أستطيع أن أحضرهما غدًا صباحًا إذا أردت، لكن مقابل ستمائة دولار، ذهل مهاب من قيمة هذا المبلغ الهائل الّذي لا يساوي ربع ما دفعوه من مواصلات، لكنّهما وافقا على طلبه، شرط ألّا يقبض دولارًا واحدًا إلى أن يحضرهما، أكمل والده طريقه تجاه عمله، بينما هو أخذ الحقائب وعاد أدراجه إلى البيت وحيدًا. حاول الاتّصال بحبيبته مرارًا، لكنَّ هاتفها كان مغلقًا. ظلّ ساهرًا مع ذاته حتّى الثّانية عشرة ليلًا، وهواجسه لم تفارقه، فلا خبر عن والدته ولا يدرون ما حدث لها، وهل يا ترى عبرت تلك الطريق؟ فالمسار الّذي قرّرت أمّ مهاب أن تعبر من خلاله لا يحبّه الكثير من النّاس، إنّهم

شـبكة هرميّــة، عمــل مــدقّق بأســماء مســتعارة. الــرّئيس فــي البدايــة، يليــه اثنــان همــا المــدير والمنسّــق، ومــن ثــمّ مجموعــة شــباب يترأّســون عمــل الجبــل علــى الأرض، وكــلّ شــابٍّ مــنهم يتــرأّس مجموعـــةَ مختصّـــين بعمـــلٍ محـــدّدٍ، مـــنهم كشّــافة يؤمّنــون الجبــل، وبعضـــهم شــبّان مراهقــون يمشــون فــي شــوارع الشّــام بــاحثين عــن زبــائنهم، وإذا مــا كنــت تمشــي وحيــدًا يــأتي إليــك أحــدُهم، ويطــوّق ذراعــه حــول عنقــك، ويســألك عمّــا إذا كنــت تنــوي السّــفر، ثــمّ يحــدّد لــك موعــدًا لاحقًــا لتنتظــره فــي مكــان مــا، وحــين يكتمــل العــدد تــأتي ســيّارة كبيــرة، تحمّــل النــاس فــوق بعضــهم الــبعض، وكــأنّهم ســلع للبيــع، بــل إنّ علبــةَ الــدّخان الّتــي بحوزتــك أثمــن منــك بحــدّ ذاتــك، ثــمّ يتّجهــون نحــو الحــدود السّــوريّة ويخــتم لهــم بــالعبور، بعــدها ينتظــرون فــي غرفــة صــغيرة مربّعــة الشّــكل، بابهــا يشــبه بــاب الــدّكان، رائحتهــا تخنــق الأنفــاس يســمّونها اســتراحة، وعنــدما يحــلّ الظّــلام يعبــرون نصــف طريــق الجبــل ســيرًا علــى الأقــدام، وهنــاك يلتقــون مــع مجموعــة شــبابيّةٍ، ليســتلموا مــنهم ويســلموهم مــا لــديهم مــن بضــائع بشــرية، ويكملــوا النّصــف الآخــر إلــى حــين وصــولهم القريــة، وهنــاك كــلّ شــخص يــدير شــؤونه بنفسه.

فــتح حقائبهــا مــن بــاب الفضــول، وبعثــر أشــياءها الطّفوليّــة الّتــي أحضــرتها، وراح يتأمّلهــا ويشــتمّ عطرهــا، إلــى أن غفــت عينــاه لثــوانٍ معــدودة، لكنّــه انــتفض قائمًــا مــن علــى ســريره، بعــدما اهتــزّ هاتفــه مــن اتّصــالٍ واردٍ مــن حبيبتــه عنــد السّــاعة الواحــدة بعــد منتصــف اللّيــل، فــراحَ يبحــثُ عــن هاتفــه بجنــون، وهــو متأكّــدٍ مــن أنّ أحــدهما يتّصــل، ثــمّ ســحبه مــن بــين الأوراق المبعثــرة علــى مكتبــه، الّتــي خــطّ عليهــا القليــل مــن قصــائده الشّــعريّة، انفرجــت أســاريره، وابتسم في وجهها قائلًا:"كيف أنتِ؟"

أخفضـــت رأســـها، فانهـــارت قواهـــا، ولـــم يعـــد بقـــدرتها الـــتّحكم بـــذاتها، وردّت كمـــن يســـخر مـــن نفســـه ومـــن حالتـــه البائســـة: "بأفضـــل حـــال، لمـــاذا يحـــدث كـــل هذا؟ "

لـــم يســـتطع أن بجيبهـــا علـــى ســـؤالها، واكتفـــى بـــالقول:" اهـــدئي، كـــلّ شـــيء سيتحسّـــن، وستمضـــي الأمـــورعلى خيـــر، وعنـــد الصّـــباح يصـــل ســـائق التّاكســـي، وســـيأتي بكـــم مـــن طريـــق آخـــر. كانـــت تعطـــي ظهرهـــا للحـــائط وبجوارهـــا والـــدتها، تغفـــو تـــارة، وأخـــرى تســـتيقظ إذا مـــا احتاجهـــا الخـــوف علـــى ابنتهـــا، ثـــمّ حوّلـــت الكـــاميرا إلـــى الخلـــف، فـــرأى عـــددًا قلـــيلًا مـــن النّـــاس الجالســـين فـــي الاســـتراحة، فهنـــاك رجـــل يجلـــس خلـــف مكتبـــه لعلّـــه صـــاحب المكـــان، والمكـــان يعمّـــه السّـــكون، لا صـــوتٌ ولا حركـــةٌ باســـتثنائهما يتبـــادلان الأحاديـــث ليخفّـــف كـــلّ منهمـــا عـــن الآخـــر، وليمنعهـــا مـــن النّـــوم، ظـــلّ يحادثهـــا طـــوال اللّيـــل، ليخفّـــف مـــن ذعرهـــا، فكـــان يُلقـــي عليهـــا قصـــائده الشّـــعريّة الّتـــي نظمهـــا لهـــا، ويغنـــي بعـــض الأحيـــان بـــالرّغم مـــن صـــوته الّـــذي لا يصـــلح للغنـــاء، لكنّهـــا كانـــت تطلـــب المزيـــد، فكلّمـــا ازددت ممّـــن تحبـــه امـــتلأت قـــوّة وصـــلابةً، وغالبـــاً مـــا كـــان يرمـــي دعابـــة، فتطلـــق ضـــحكة خفيّـــة، ثـــمّ تضـــع يـــدها علـــى فمهـــا خجـــلًا، بـــزغ الفجـــر ومـــا زالا هكـــذا فقال:" فنصلِّ الفجر يا حبيبتي ولندعُ الله تيسيرًا لأمورنا".

غـــاب عنهـــا لنصـــف ســـاعة بعـــدما صـــلى وقـــرأ مـــا تيسّـــر مـــن القـــرءان، ثـــمّ عـــاد مســـرعًا إلـــى هاتفـــه، فتحـــه فوجـــد رســـالة مـــن صـــديقته ربـــا تريـــد منـــه أن يـــذكّرها بأمر ما فرد عليها:" صباح الخير، أوك".

فردّت عليه بسرعة متفاجئة منه:

- "مـــا الّـــذي يبقيـــك مســـتيقظًا لهـــذا الوقـــت، فربـــا كانـــت تـــدري منـــه مـــا حدث مع الفتاة وأمّها وأنّهما عادتا إلى حدود بلدهما".
- لم أستطع النوم.

- واللہ توقّعت، يا مهاب، ربّ العالمين لديه حكمة من كلّ أمر، وإن تأخّر كلّ شيء، فهو يؤخّره لخير فلا تقلق، بالتّأكيد أنت حزين لأنّك كنت تحضّر نفسك للقائها وسعادتك فائقة، لكنّك لا تدري أين الحكمة من قضاء الله، دائماً انظر إلى من هم حواليك، شاهد معاناتهم، ثمّ قارنها بمصيبتك فستجد الفارق لا محالة. لن يحدث لها شيء وستلتقيان حتمًا، أنسيت ما قلته لي عندما جاءت أختي لزيارتي وأنا وحيدة في لبنان بعدما غابت عنّي هي وعائلتي سنوات طويلة؟

سأقوله لك: ما بعد الشقاء إلا الهناء وما بعد البعاد إلا اللقاء.

بعد مضي وقت، اتّصل مهاب بحبيبته مجدّدًا، وعادت أحاديثهما إلى ما كانت عليه، وظلّا حتّى السّاعة السّادسة صباحًا، فقال لها:" لقد فتحت حقائبك، ورحت أملّي نظري بأشيائك، ولكن ما حاجتي لها وأنت غائبة عن عيني، فلا شيء يشبع نظري سوى رمقة من عينيْكِ، تعطيني قوّة أُجابه بها العالم بأسره، ثمّ انقطع الاتّصال فجأة، فغفت عيناه لساعة، لكنّه انتفض قائمًا بعدما اتّصل به سائق التّاكسي، يطمئنه بأنّه وصل إلى الحدود، وسينطلقون بعد قليل. اتّصلَ بأمّه، لكن هاتفها كان مغلقًا. استلقى على سريره وهو يمنع عينيْه من النّوم، منتظرًا اتّصالهما لساعات طويلة، وعندما اقترب موعد أذان الظّهر، اتّصلت به الوالدة تخبره بعبورها الجبل، وهي في طريقها إلى محطة اللقاء، فنهض على قدميْه، وارتدى ثيابه، وركب سيّارة الأجرة وانطلق، وبينما هو في طريقه جاءه اتّصال من السّائق، يخبره بأنّ الأمور تجري بخير، وأنّهم سيصلون إلى المحطة بعد ثلاث ساعات من الآن، لم يصدق ما سمعه، لكن سرعان ما رقص فؤاده فرحًا، وازدادت نبضات قلبه سرعة، ولو أنه استطاع الصراخ بأعلى صوته ليخبر النّاس بما يحدث، لفعل ذلك، لكنّه احتفظ بالسّعادة لنفسه. اقترب من نافذة السّيّارة، وفتحها،

وأخرج يده، ونظر إلى البحر متأملًا أوصافها في ضوء الشّمس المتلألئ على موجاته الهادئة، وعند وصوله إلى جسر الكولا وجد والدته تنتظره أسفل الجسر، ركض نحوها، وقبّل يديْها، واحتضنها، ومن ثمّ أوقفا سيارة للأجرة، وانطلقا نحو موعدٍ للحبِّ لطالما انتظره بفارغ الصّبر. وصل إلى محطّة (شارل الحلو)، وجلس بالقرب من والدته على مقعد حجري وسألها:" لم تخبريني ما حدث معك ليلة أمس؟"، فقد كان من المفترض أن تصلي إلى البيت في السّاعة الثّانية بعد منتصف ليلة أمس، فقالت له:" لقد خُدعنا يا بنيّ، أنا وكلّ الّذين كانوا معي، فقد قالوا لنا إنّ الكشّافة تفقّدوا الجبل وبإمكاننا العبور، لكنّ الجيش الحدوديّ خرج علينا بغتة في الظّلام، لا ندري على التّحديد أين وكيف ولماذا، ونحن في غفلة من أمرنا، صوّبوا أسلحتهم نحونا، وأرغمونا على العودة إلى الشام، وقاموا بضرب الشّباب الّذين يعملون في الجبل، فعاد النّاس من حيث أتوا وأنا من بينهم. لوهلة أحسست بأنّ الله أنزل إليّ بالوحي، وكأنّ قدرةً سماويّةً جعلتني أعود للجنود، فوقف أحدهم في وجهي ورفع سلاحه مجددًا، وقال:"لماذا عدتِ؟".

فقلت له:" أخي أنا كنت هنا من قبل، وإقامتي شرعيّة، لكنّ الدّفعة الّتي ذهبت إلى بلدنا توارت عن الأنظار، ولم يعد بإمكاني اللّحاق بهم، وأولادي وزوجي هنا. على الرّغم من ذلك لم يصدّقني، ويسمحْ لي بالعبور إلّا عندما ذكرت له مناطق عدّة حيث أقيم"، فوالدته لم يكن باستطاعتها الخروج من لبنان بطريقة شرعيّة، لأنّ إقامتها منتهيةٌ صلاحيتها، وهذا يؤدّي لمنعها من الدّخول مرّة أخرى.

بعد مرور ساعتين من وصولهما جاء رجل ضخم الجثّة، عريض المنكبين من خلفهما، وقال لهما: "أأنتما أقرباء الأمّ والشّابة اللّتيْن أحضرتهما من سورية؟"

فردّت عليه والدته: "نعم نحن"

قال لهما متبسمًا:" هاهما خلفي".

مــال بجســده نحــو الشّــمال قلــيلًا، فوجــدها تخــرج مــن خلــف ســيّارة كانــت تــركن فــي الموقــف بــالقرب مــن الرّصــيف، بقامــة طويلــة وثيــاب ســوداء تليــق بهــا، ونظــارة شمســية تضــعها علــى رأســها، تمشــي بخطــوات هادئــة متوجّهــة نحــوه. ظــلّ محــدّقًا فيهــا لثــوانٍ معــدودة، وراح يفكّــر، أيــركض نحوهــا ويحتضــنها بقــوة؟ وكــان يخشــى إذا فعــل ذلــك أن تصــاب بمكــروه مــا، لكنّــه تشــجّع وركــض نحوهــا بلهفــة واشــتياق، وهــي بــادرت بالسّــرعة ذاتهــا. لــم يعــد يــرى شــيئًا آخــر ســواها، وكــأنّ المكــان صــار خاليًــا مــن كــلّ شــيء إلّا مــن صــوت خطواتهمــا وهــي تطــرق علــى الأرض، عانقهــا برفــق وشــوق، فاجتاحتهمــا الطّمأنينــة، وقتلهما السّكون، وغرقا في صمت هائم.

أجل لقد ابتسم لهما القدر، وكتب لهما لقاءً بعد طول انتظار.

تلافيف
عشق
طيبة
دادو

## تلافيــف عشـــــق

**لا خير في حياة يحياها المرء من غير حبٍّ،**
**ولا خير في قلبٍ ينبض من دون حبّ،**
**فالحب أفضل من الغضب، والأمل أفضل من اليأس،**
**لذلك علينا أن نكون محبين، آملين ومتفائلين.**

**طيبــة دادو**

لا الصــورة صـــارت تشــفي مـــا فـــي صـــدورنا مـــن مـــرض الشّـــوق ولا الصّـــوت حتّـــى، فالأيّـــام تمضـــي، بـــل والسّـــنون أيضًـــا، والحـــرب لـــم تهـــدأ بعـــد. العـــائلات تفرّقـــت، والأحـــلام والأمـــاني تمزّقـــت، خمســـة أعـــوام مضـــت، كأنّهـــا ألـــف ســـنة، ومـــا زلنـــا حتّـــى اللّحظـــة نحلـــم برؤيتـــه بيننـــا، وبطفليْـــه اللّـــذيْن ولـــدا ولـــم نرهمـــا إلّا مـــن خلـــف شاشـــة هـــاتف حمقـــاء، يلعبـــان ويمرحـــان، أحـــدهما يبحـــث عـــن طعـــام فـــي الثّلاجـــة، والآخـــر يتبـــاهى بكثـــرة السّـــيّارات أمـــام عمـــه الصّـــغير(علي)، فعلـــى الـــرّغم مـــن صـــغر ســـنه غيـــر أنّـــه يحلـــم عنـــدما يكبـــر برئاســـة معمـــل مـــن السّـــيّارات، أمّـــا هـــذه الحـــرب اللّعينـــة، وبكـــلّ مـــا فيهـــا مـــن أســـى، فلـــن تســـتطيع أن تقتل أحلامنا وأمنياتنا.

ودّعتنـــا أمّـــي والـــدّموع تنهمـــر علـــى خـــدّيها، ومضـــت حاملـــة حقيبتهـــا الصّـــغيرة، الّتـــي لا تحـــوي ســـوى زادٍ يكفيهـــا لســـفرها، والقليـــل مـــن الثّيـــاب، بعـــدما اتصـــلت بالسّـــائق مـــن هـــاتفي المحمـــول الّـــذي ســـيقلّها خلســـةً، لتقطـــع حـــدود لبنـــان عبـــر طريـــق الجبـــل، وذلـــك لأنّهـــا لا تملـــك إقامـــة شـــرعية فيـــه تمكّنهـــا مـــن مغادرتـــه، والعـــودة إليـــه متـــى تشـــاء، لأنّهـــا تحتـــاج إلـــى الكثيـــر مـــن المـــال لتســـوية ســـنوات كســـر إقامتهـــا، أمّـــا أنـــا فكنـــت قـــد وضـــعت صـــورتي مـــع صـــورة أمّـــي علـــى الوتســـاب فرآهـــا السّـــائق الّـــذي قصـــدته لتســـافر معـــه، وبينمـــا هـــي فـــي طريقهـــا كنّـــا نكلّـــم ذلـــك السّـــائق بـــين الحـــين والآخـــر لنطمـــئنّ عليهـــا، وبعـــدما وصـــلت ســـالمة أخبرنـــي السّـــائق بـــذلك، وســـألني عـــن فتـــاة الـــواتس أب، فأخبرتـــه بأنّهـــا أنـــا، فأبـــدى إعجابـــه بـــي، وقـــال بـــأنّي فتـــاة جميلـــة أشـــبه أمّـــي، فقلـــت لـــه:" لـــيس مـــن شـــأنك إن كنـــت جميلـــة أم لا"، وقمـــت بحظـــره، لكنّـــه لـــم يكـــلّ عـــن محـــادثتي، فكلّمنـــي مـــن رقـــم هـــاتف آخـــر قـــائلًا: "ليكـــي يـــا بنـــت إذا طلبتـــك مـــن أهلـــك بتـــوافقي، والله انـــو عجبتني نفسيتك".

وعنــدما فتحــت هــاتفي المحمــول، ووجــدت تلــك الكلمــات ارتعــش فــؤادي، وقلــت فــي قــرارة نفســي:" ربّمــا كــان يريــد إرســال الرّســالة لإحــداهنّ، ووصــلتني عــن طريــق الخطــأ"، فأجبتــه:"ليش أنــت بتعرفنــي أو بتعــرف أهلــي" فأجــاب:"لا مــا بعرفــك بــس إذا مــافي مــانع منتعــرف"، فقلــت لــه:" حســنًا، لكــن، إيّــاك أن تضــايقني برســائلك المتواصــلة، فأجــاب: "موافــق" وأنهيــت الحــديث بكلمــة "باي".

أمّــا عــن تلــك اللّيلــة فقــد كانــت طويلــة، مخيفــة، ومزدحمــة بالأفكــار والأســئلة الّتي لا نهاية لها، ولا أجوبة.

كنــت أتســاءل إن كــان ذاك الشّــابّ صــادقًا أو أنّــه يريــد أن يأســرني بحبّــه ويــذهب، فتــذكّرت عنــدها جملــة أمّــي الّتــي كانــت تردّدهــا لــي "ليكــي يــا بنتــي هــدول الشــباب مــالن أمــان وبيلعبــو بمشــاعر البنــات فــلا تصــدقي حــدا ولا تــوثقي بحــدا"، وبــرغم ثقتــي العميــاء بــأمّي، وإيمــاني بــأنّ إحساســها لا يخيــب، ونــادرًا مــا يحصــل عكــس مــا تقــول، لكــنّ هنــاك شــيئًا بــداخلي كــان يحثّنــي علــى أن أصدّق ما قاله ذلك الشّابّ، لكن برغم هذا كنت خائفة جدًا مما سيحصل.

نمــت تلــك اللّيــة عنــد السّــاعة الثّانيــة عشــرة، منتصــف اللّيــل، علمًــا بأنّــه وقــت متــأخّرٌ مــن اللّيــل فــي أجــواء عــائلتي. اســتيقظت فــي السّــاعة السّــابعة صــباحًا، مــددْت يــدي تحــت وســادتي، أبحــث عــن هــاتفي بفوضــاويّة مفرطــة، وعلــى غيــر عــادتي قمــت بعمــل كهــذا، أيــن أنــت؟ أيــن أجــدك يــا مــن بعثــرت عــواطفي طــوال اللّيــل، تعــال إلــى هنــا أيّهــا اللّعــين، فتحتــه، فوجــدت رســالتيْن منــه يقــول فيهما:"صــباح الخيــر، كيفــك؟ أجبتــه، وكانــت يــداي ترتعشــان وترتجفــان، وأصــابعي ســريعة علــى غيــر عادتهــا، صــباح النّــور، الحمــدلله وأنــت"، فقال:"الحمــدلله، ليكــي أنــا عنــدي شــغل رح اضــطر ســكّر لمــا ارجــع بحكــي معك"، أجبت:"أوك".

وضـــعت هــــاتفي المحمـــول علــــى الطاولــــة المجــــاورة لســــريري، لكـــن بعـــد أن وضـــعته فـــي حالـــة الـــرّنين، علمًـــا أنّنـــي بالعـــادة أبقيـــه صـــامتًا، لكـــن قلـــت فـــي نفســـي من الممكن أن يراسلني في أيّة لحظة.

مضـــى الوقـــت، وصــــارت السّــــاعة الرّابعـــة والنّصـــف بعـــد الظهـــر، ســـمعت رنـــين الهـــاتف، وأنـــا فـــي المطـــبخ أغســـل الأوانـــي والصّـــحون. غســـلت يـــديّ، وتوجّهـــت مســـرعة إلـــى غرفـــة الجلـــوس، لآخـــذ هـــاتفي مـــن علـــى الطّاولـــة، وأفتحـــه فأجـــد رســـالته الّتـــي أدهشـــتني "بســـت"، فقلـــت له:"شـــو جيـــت مـــن الشـــغل"، أجـــاب قـــائلًا: "أي والله"، تحـــدّثنا لنصـــف ســـاعة تقريبًـــا، وبعـــدها اعتـــذرت لـــه، لأنّنـــي مشـــغولة بأعمـــال المنـــزل، فوالـــدتي عـــادت إلـــى ســـوريا، وأنـــا البنـــت الوحيـــدة، ومـــن الطّبيعيّ أن أهتمّ بالمنزل، وإدارة شؤونه.

صـــرنا نـــتكلّم يوميًّـــا، ومـــن دون ملـــل، فـــي كـــلّ أوقـــات الفـــراغ، وصـــرنا نتـــأرجح علـــى شـــواطئ الحـــبِّ بـــين الفـــرح والسّـــعادة، إنّهـــا حالـــة فـــرح تـــدلّ علـــى مـــا نحملـــه مـــن حـــبٍّ فـــي قلبيْنـــا، فالسّـــعادة موجـــودةٌ فـــي أشـــياءَ صـــغيرةٍ حولنـــا، كابتســـامة طفـــلٍ هـــانئ فـــي نومـــه، كأصـــواتٍ حانيـــة تعزفهـــا الـــرّيح عنـــدما يســـتيقظ الزّهـــر، وكتـــاب يحمـــل بـــين صـــفحاته كلمـــات تخاطـــب القلـــب وتعـــزي الـــنّفس، لكنّنـــي، وبســـبب الحـــرب فقـــدت السّـــعادة، فـــالحنين إلـــى الـــوطن يقتلنـــي، فهنـــاك ذكريـــات تتفـــرّع فـــي القلـــب، وتتمـــدّد مثلمـــا تتفـــرّع جـــذور الشّـــجرة فـــي الأرض، هـــي علاقـــة حميمـــة تربطنـــي بأرضـــي، تتـــراقص بـــين زوايـــا أمـــاكن نشـــأت وترعرعـــت فيهـــا مـــذ كنـــت طفلـــة. إنّنـــي أتغنّـــى بقصـــائد حنـــين واشـــتياق، هكـــذا أبـــوح عـــن معانـــاةٍ تســـكن قلبـــي، مرارتهـــا أرتشـــفها مـــع كـــأس الحنـــين، وبـــأحلام ضـــائعة تبحـــث عمـــن يهـــديها ســـبيل العـــودة إلـــى مهـــدها الأوّل، لكـــنّ الحيـــاةَ تعلّـــمُ الإنســـان مـــا يمنحـــه الأمـــل، والأمـــل موجـــود بحضـــن أمـــي، بكلماتهـــا، بصـــوتها حـــين تنـــاديني، هـــي الوطن والملجأ الوحيد في هذا العالم.

قـرّر ذلـك الشّـابّ أن يقـوم بزيارتنـا لخطبتـي عنـدما عـودة أمـي مـن السـفر. بعـد مـرور أيّـام عـادت أمّـي، وعـادت معهـا الابتسـامة والحيـاة إلـى منزلنـا الصّـغير والمتواضـع، عـادت برفقـة الفتـاة التـي تكـون ابنـة خالتهـا، الّتـي ستصـير زوجـةَ لأخـي الأكبـر بيننـا فـي لبنـان، وأمّهـا. تـزوّج أخـي، وبعـد وقـت زارنـا ذلـك الشّـاب صـاحب البشـرة السّـمراء والطّويـل القامـة، والعـريض الكتفـين، والأسود العينين، لخطبتي.

كنـت خائفـة جـدًا ممـا سيحصـل بعـد زيارتـه لنـا، ولقائـه بـأبي وإخـوتي، فجمـيعهم يريـدون لـي مسـتقبلًا مليئًـا بـالفرح وحيـاة زوجيـة هنيئـة، فأنـا طالبـة فـي صـف البكالوريـا، ولـم أنـهِ تعليمـي، ومـن المعـروف أنّ الفتيـات اللّـواتي يتـزوّجن خـلال عـامهم الدّراسـيّ لا يتـابعن تعلـيمهن. بينمـا كنـت جالسـة فـي الغرفـة، خائفـة ومـذعورة، سـمعت صـوتًا مـن غرفـة الضـيوف عاليًـا، فأيقنـت أنّـه صـوت أبـي، فجئـت مسـرعة إلـى المطـبخ المجـاور لغرفـة الضّـيوف، قاصـدة سـماع حـديثهم، بهـدف أن يرتـاح ضـجيج قلبـي، فسـمعت أبـي يقـول لـه:" يـا بنـي أنـت بمثابـة ولـد مـن أولادي، لكنّـي فـي الحقيقـة يصـعب علـي تلبيـة طلبـك، تسـتطيع أن تطلـب أثمـن شـيءٍ أملكـه، لكنّـك لا تسـتطيع أن تطلـب يـد ابنتـي الوحيـدة، وهـي فـي الثامنـة عشـرة مـن عمرهـا، ولـم تنـهِ دراسـتها بعـد، فأجـاب ذلـك الشـاب بصـوت مرتجـفٍ:" يـا عـم، أريـد أن يكـون هنـاك شـيء رسـميٌّ بينـي وبـين ابنتـك، وأنـا علـى اسـتعداد لأن أنتظرهـا لتكمـل تعليمهـا حتـى لـو اسـتغرق هـذا عشـر سـنوات. سـكت الجميـع، وعـمّ الصّـمت أرجـاء المكـان، حتّـى كسـر ذلـك الصـمت كـلام أبـي المـدهش قـائلًا:" أعتـذرمنك يـا بنـيّ، لكـن طلبـك صـعب المنـال، وعليـك الابتعـاد عـن ابنتـي، فهـي صـغيرة، ولا تعـرف مـدى صـعوبة هـذه الحيـاة، فسـكت ذلـك الشّـابّ، وسـكت الجميـع، وقـال الشّـاب لهم:"علـيكم أن تعـذروني علـى وقـتكم الّـذي أشـغلتكم فيـه"، ليجيـب أخـي (عمّـار) الّـذي يكبرنـي بـأربع سـنوات قـائلًا:"أهلا وسـهلا" بـك متـى أردت المجـيء". اسـتيقظت

صــباح اليــوم التــالي وكانــت عينــاي قــد احمرّتــا وتورّمتــا، وكــان مــن عــادتي أن أذهــب إلــى غرفــة أمّــي صــباحً، لأقــول لهــا: "صــباح الخيــر"، وأقبّــل يــدها ورأســـها ليكتمـــل نهـــاري بســـعادة، فلاحظـــت أمّـــي تـــورّم عينـــيّ، فســـألتني عـــن السّــبب، فأخبرتهــا، فعــانقتني ومســحت بيــديها علــى شــعري، وقالــت:" لا تبكــي، إن كتــب الله لكــم نصــيبًا فــي الــدّنيا، حتمًــا ســتكونون لبعضــكما، وإن لــم يكتــب الله لكمــا النّصــيب فــي السّــماء، فلــن نســتطيع أن نكتبــه فــي الأرض. اســتطاعت أمّــي بكلماتهــا أن تخفّــف مــن حزنــي، أمّــا ذلــك الشّــاب فلــم يستســلم، فاســتمرّ بمحادثــة أمّــي محــاولًا إقناعهــا بالموافقــة علــى خطوبتنــا، وأن تُقنــع أبــي وأخــوتي بــذلك. فاجــأتني أمّــي فــي اليــوم التّــالي عنــدما أخبرتنــي بأنّــه لامشــكلة عنــدها فــي مــا يتعلّق بقرار خطوبتي.

بعــد أيّــام، وبعــد الكثيــر مــن المحــاولات، وافقــت أمّــي علــى مســاعدتنا، وبــذل قصــارى جهــدها فــي إقنــاع الجميــع بمــا نريــده. وافــق أبــي وأخــوتي، وأرادت أمّــي أن تفــاجئني بــذلك الخبــر بعــد عــودتي إلــى البيــت. أتــى أيّــوب فــي ظهيــرة اليــوم التّــالي، بعــد ســماعه خبــر موافقــة أهلــي، ليطلــب يــدي مــرّة ثانيــة، ويحــدّد موعــد الخطوبــة، فقــرّر أهلــي أن تكــون الخطوبــة ، يــوم الأحــد الواقــع فيــه الحــادي عشــر مــن شــهر تشــرين الأوّل (أكتــوبر). بــدأنا نعــدُّ الأيّــام والسّــاعات، حيــث اعتــدت كــلّ صــباح بعــد اســتيقاظي رؤيــة رســالة واتســاب مــن أيــوب، يقــول فيهــا: "بــاقي... يــوم للأحــد". إلــى أن جــاء ذلــك اليــوم المنتظــر الّــذي اســتيقظت فــي صــباحه، فوجــدت أيــوب جالسًــا فــي غرفــة الضّــيوف مــع أمّــي وأبــي. نهضـــت مســـرعة، واتّجهـــت نحـــو الحمـــام، بعـــد أن رتّبـــت ســـريري، لأنظّـــفَ أســـناني وأغســـلَ وجهـــي. فتحـــت بـــاب غرفتـــي، فرأيـــت طـــلال خارجًـــا مـــن غرفتـــه المجـــاورة لغرفتـــي، فقـــال لـــي ممازحًـــا: "يســـعدلي صـــباحا عروســـتنا الحلــوة". لــم يكــن طــلال مجــرد أخ ، بــل كــان صــديقي الــوفيّ، ورفيــق الــدّروب الطّويلــة، حيــث كــان يصــطحبني إلــى المراكــز الّتــي كــان يقــيم بهــا التّــدريبات

الشّعريّة لعدد من الشّباب والشّابات، كما كان يصطحبني إلى أمسية النّورس، الأمسية الشّعريّة الثّقافيّة التي يشارك فيها عدد من اليافعين الّذين يتبادلون الشّعر، والأحاديث الثّقافيّة ويعرضون مواهبهم الأدبيّة، فقد كان طلال من صغره يحبّ اللّغة العربيّة وآدابها، وعندما بلغ التّاسعة عشرة، التحق بفرقة فنيّة تدعى "فرقة لاجئ"، وكانت مشرفتها شابّة اسمها " ربا رحمة"، ينادونها المس ربا، كانت بمثابة أمّ للجميع، وبعدما رافقته لأكثر من مرّة إلى أماكن التّدريب، تعرّفت على المس ربا، فأردت أن ألتحقَ بتلك الفرقة، لأكتشف موهبتي وأنمّيها. عندها اكتشفْت بأنّني أهوى الشّعر، وخاصّة الشّعر القديم (الشّعر الجاهليّ)، حينها صار طلال المدرّب الّذي يعلّمني فنّ الإلقاء، ويحثّني على الكتابة، إلى أن تطوّرت موهبتي الكتابيّة، فأصير مساعدته في تدريباته.

انتهيت من تنظيف أسناني، وبسرعة كبيرة بدّلت ملابسي، وخرجت مسرعة نحو غرفة الجلوس، لأجد أيوب وأهلي بانتظاري. تناولنا الفَطور، وخرجنا بخطوات سريعة، قاصدين السّوق، لشراء ما نحتاجه لتجهيزات حفلة الخطوبة.

مرّ الوقت سريعًا، ونحن مشغولين بين تحضير أنفسنا، وتجهيز ما يلزم، إلى أن حلّ الظّلام، وجاء موعد الحفلة، في تمام السّاعة الثّامنة مساء الأحد.

أنهينا حفلة خطوبتنا بتوديع النّاس، وبعدها جلست وأيوب على الشّرفة، وبينما كنت أتكلّم بصوت متوسّط كان ينظر إليّ مبتسمًا، لفتت نظري ابتسامته الغريبة، فسألته عن سببها، ليردّ عليّ بجواب مضحك قليلًا، قائلًا:"شايفة هالمحبس، والله نشف ريقي لحتى لبسناه"، فأجبته:" إن الله إذا أراد شيئًا كان، وإذا جمع بين اثنين فلن يفرّقهما ثالث، لكنّي وبرغم تبادل الحبّ والمشاعر بيني وبينه غير أنّني لا أريد أن يزيدَ هذا الحبّ عن حدّه، فمن طبعنا نحن البشر أن نهجر عندما يزيد الحبّ عن حدّه، نهجر عندما

ينقص منسوب الحبّ داخل الحبّ، نهجر لفرط الشّوق الّذي يجرفنا ولا مصبّ لشلّالاته، ونهجر لموت الشّوق حين يجفّ تدريجيًّا نبعه، نهجر لفرط الحريّة، كما لفرط العبوديّة، لفرط الوفاء، كما لفرط الخيانة، لفرط حاجتنا، كما لفرط استغنائنا.

مضى على خطوبتنا ما يقارب الأسبوعين، وبعدها اضطررت للسفر إلى سوريا، لتقديم امتحان قبول معلومات صف العاشر، والحادي عشر، الّذي من خلاله لتقديم امتحان البكالوريا الرّسميّة.

ودّعت أهلي، والدّموع تنهمر على خديّ، وكان أيّوب قد أتى لتوديعي قبل سفري، فمن جهةٍ هو لا يريدني أن أسافر، خشية أن يصيب قلبه كثير من الشّوق والحنين، ومن جهة أخرى يريد أن أذهب لأنهي تعليمي، وأحصل على شهادة الثّانوية العامة.

صباح اليوم التّالي، أيقظني رنين هاتفي المحمول، إنّه أيّوب، التقطت هاتفي بسرعة:" صباح الخير، صباح النّور، وتحدّثنا قليلًا. قمت من سريري، وفي خاطري كثيرًا من الأسئلة. كنت أتساءل إن كنت سأعود سالمة إلى منزلي، وهل سأنام في حضن أمي مرّة أخرى؟ هل سأرى أهلي ثانيةً؟ هل سأنظرُ إلى عينيّ أخي الصّغير(علي)، لأجد فيها الأمل والحياة بعد الآن؟

بدّلت ملابسي بسرعة، وتوجّهت نحو غرفة أمّي لأودّعها، لكنّي فوجئت بقولها:"سأوصلك إلى مكان انطلاق الحافلة، وأعود عندما تذهبين مع رفاقك"، وكانت قد جهّزت لي القليل من الطّعام الّذي يكفيني حتّى أصل إلى السّكن الذي سنقيم فيه.

ودّعت أمّي بحضن دافئ منها، وقبلات حنونة، وكلمات مكلّلة بالرّضى والحبّ، ومضيت في الحافلة المليئة بالطّلاب. وصلنا إلى حدود البلدين، وبعد انتظار طويل، يصرخ سائق الحافلة:" على الجميع إحضار الأوراق اللازمة للتّختيم وعبور الحدود"، جهّزنا أوراقنا، وذهبنا مسرعين نحو

غرفة صغيرة "براكية" لتصوير الأوراق المطلوبة، أنهينا تصويرها، ثمّ اتّجهنا إلى المكان الّذي تختم فيه أوراقنا الثبوتية للمغادرة. عند وصولنا طلب منّا أحد الضّباط الوقوف في الصّف، أمّا أنا، فكنت واقفة في المنتصف، وكانت تقف خلفي صبيّة تبدو في السابعة عشرة من عمرها. لم يكن قد مرّ الكثيرمن الوقت على اجتيازها الحدود. فاجأتني حين طبطبت بيدها على ظهري، واقتربت منّي، ووضعت فمها في أذني هامسةً: "طيبة طيبة"، أجبتها:"نعم" فقالت:" أرأيت ذلك الضّابط الّذي يقف خلف تلك الطاولة؟ فقلت لها: "نعم رأيته"، فقالت:" هذا الضّابط الّذي مزّق ورقة الحجز الفندقيّ، الّذي أردت أنا وأمّي العبور من خلاله، وطردنا، قائلًا:"ارجعوا مكان ما اجيتو لانو ما رح تفوتو"، فأجبتها وأنا محاولة طمأنتها:" لا تقلقي سنصل آمنين إن شاء الله".

ختمت أوراق الطلاب بسرعة، جاء دوري، أعطيت ذلك الضّابط الأوراق، ويداي ترتعشان خوفًا، لكن من دون سبب، أخذها من يدي، وقال:"اطمئنّي"، أجبته: نعم، بعدها، خرجت والبسمة مرسومة على وجهي. انتظرنا ساعة تقريبًا، حتّى أنهى جميع الطّلاب تختيم أوراقهم، وعندما اكتمل العدد في الحافلة، انطلق السّائق نحو الحدود السورية. وصلنا إلى الحدود ، مجهّزين أوراقنا للدّخول سريعًا، فقد بدأنا نشعر بالتّعب.

مشينا حتّى وصلنا العاصمة دمشق، تلك المدينة الّتي تجعلنا نشتمّ عبق التّاريخ، ونسمع حكايات تلك الحارات الجميلة القديمة الّتي تعبق بها رائحة الياسمين وتملأها أصوات الأطفال الّذين يلعبون، والجيران الّذين يلتقون يوميًّا في مكان واحد، والجارات اللّواتي يتعازمن على أطيب المأكولات، لكنّ الحرب غيّرت ملامح النفوس، فالدّمار داعب الحجارة والجدران، والموت رفرف فوق كلّ حي، والجوع اختنق بما بقي من الحياة.

أقمنا فيها مدّة طويلة تقارب الشّهر، وكان هذا التّأخير بسبب الوثيقة الّتي ستصدر عند حدود لبنان، لنتمكّن من خلالها العبور والوصول إليه، حيث تمّ منع دخول الطّلّاب الّذين هم في سنّ الخامسة عشرة وما فوق، ولم نعرف سببًا لذلك، فقد فوجئنا بهذا الخبر من مدير المعهد خلال إقامتنا في العاصمة بعد وصولنا بعدّة أيّام. لم يكن أمامنا إلّا الانتظار، وبعد محاولات كثيرة من المدير، ورفض الوثيقة لعدّة مرّات من الأمن العام حتّى وافقوا عليها، وقرّروا تعميمها عند الحدود.

لم أكن سعيدة في دمشق على الرغم من أنّها وطني غير أنّني بتّ فيها غريبة، فلا منزل يؤويني، ولا عائلتي التي اعتدت السّهر معها كلّ ليلة، ولا حضن أمّي الّذي ينسيني الهمّ والحزن، ولا يدها الّتي أقبّلها كلّ يوم صباحًا.

عائلتي في لبنان بدأ خوفهم يزداد يومًا بعد يوم، بسبب تأخيري المفاجئ، وعندما أخبرتهم بأن الوثيقة قد صدرت وستُعمّم قريبًا على الحدود، اطمأنّوا نوعًا ما. بعد صدور الوثيقة بعدّة أيّام، طلب منّا المدير أن نوضّب حقائبنا، ونجهّز أنفسنا استعدادًا للسّفر. استيقظنا باكرًا في صباح اليوم التّالي، وانطلقنا عند السّاعة الثّانية عشرة بعد الظّهر، وتوقّعنا أن نصل عند منتصف اللّيل، فالمسافة بين البلدين لا تستغرق أكثر من خمس ساعات. وصلنا الحدود، وهممنا بالدّخول لتختيم الأوراق المطلوبة، فتفاجأنا بأنّ معنا طالب في السّابعة عشرة من عمره، أي تحت السّن القانونيّ، ويمكنه مغادرة القطر العربيّ متى يشاء، ولهذا طلب منه إذن سفر من والديه ووصاية شرعيّة عن نفسه، وعندما تفقّد أوراقه لم يجد تلك الورقة، فاضطر إلى الرّجوع إلى الوطن. مضينا باتّجاه حدود لبنان، وما إن وصلنا حتّى نزل المدير إلى الغرفة الّتي يتمّ فيها تختيم الأوراق، ليعود إلى الباص حاملًا معه الخبر الّذي صدم الجميع به، حيث أخبرنا بأنّ هناك خطأ ما في

الوثيقة، بسبب تعيين موظفة جديدة برتبة عميد في فرع الأمن الدّولي ، ممّا جعلنا ننتظر اثنتي عشرة ساعة على تلك الحدود ، فقد حاول المديرُ تمكيننا من العبور بعدّة طرق من خلال تواصله مع جهات معنيّة كثيرة، وبعد انتظارنا الطّويل قرروا ختم أوراقنا، بشرط أن تُسحب هُويّاتنا الشّخصيّة، وبطاقة الدّخول ، والقسيمة الّتي تباع هناك عند المغادرة، وإعطاؤنا ورقة تثبت أن أوراقنا وهوياتنا الشّخصيّة سُلبت منّا على الحدود.

بعد مرور وقت طويل، ونحن نرتجف من شدّة الصّقيع، وكان البعض في الباص، والبعض الآخر نزل منه ليأتينا ببعض المعلومات، حتّى نادانا المديرُ، وطلب منّا الاصطفاف وراء بعضنا البعض، لنوقّع على بنود تتضمّن موافقتنا على قرارهم بسلب أوراقنا منّا، لنعبر الحدود. بعد أن عبرنا تلك الحدود الّتي جعلتنا نفقد الأمل في العودة إلى الوطن، بسبب ما ذقناه من تعب وبرد شديدين. توقّف السّائق لينزل أحد الطّلّاب في الشّارع القريب من بيته في بيروت، وبعد قليل لم يبق في الباص إلّا الطّلّاب الّذين يريدون الوصول إلى صيدا وأنا من بينهم. وصلنا إليها، فلفت انتباهي الملعب البلديّ، وهو من الأماكن المشهورة في المدينة، فصرخت بصوتٍ عالٍ، لقد وصلنا، نعم وصلنا إليها، سأعود إلى بيتي بعد أقل من عشر دقائق، سأعانق أمّي عناقًا شديدًا، سأرى أبي وأقبّل يده لأنال الرضى منه، وأقبّل خد أخي علي الصّغير (آخر العنقود)، وأصافح أخي وصديقي طلال وأحتضنه شوقًا، وأنظر في عينيّ عمّار الّذي يكبرني بأربع سنوات، لأجد فيهما الحنان والأمان، وأقبّل أخي أحمد الّذي يصغرني بسنة فقط، لتعود ذاتي إلى ما كانت عليه سابقًا، ويزول الشّوق والشّغف من قلبي لهم.

وصلنا إلى المكان الّذي منه بدأت رحلتنا، حيث كنت واقفة بقرب النّافذة الّتي تطلّ على الكورنيش البحري، الّتي من خلالها رأيت أمّي، وأبي، وطلال، وأيوب منتظرين عودتي، فأصرخ" إنّها أمّي، نعم أمّي، ها هو

أبــي، التفــتّ يســارًا فرأيــت طــلالًا وأيــوب يتحــدّثان، والبســمة مرســومة علــى وجهيهما.

نزلــت مــن البــاص حاملــة حقيبتــي الّتــي ألقيتهــا علــى الأرض عنــد نزولــي، مســرعة نحــو أمّــي، لأعانقهــا، ليعــود تنفســي الطّبيعــي، وتعــود الحيــاة كمــا كانــت جميلــة فــي السّــابق، وأقبّــل يــد أبــي ورأســه وأخبــره أنّــي بخيــر، وأصــافح طــلالًا ليحتضــنني مقــبلًا رأســي. كــان أيــوب واقفًــا خلــف أمّــي ممازحًــا، ومــا إن صــوّبت نظــري نحــوه حتّــى فــتح ذراعيــه، ليحتضــنني بــالكثير مــن الحــبّ، والشّوقِ، والشّغفِ، والحنين.

حمّــود الغائــب عــن العــين والحاضــر فــي القلــب دائمًــا، ســأنتظر رؤيتــك، وأنتظــر اليــوم الّــذي ســأعانقك فيــه لتطفــئ بحنانــك نــار الشّــوق فــي قلبــي، وأنتظــر رؤيــة زوجتك، سأنتظر رؤية ولديك الصّغيرين وتقبيلهما.

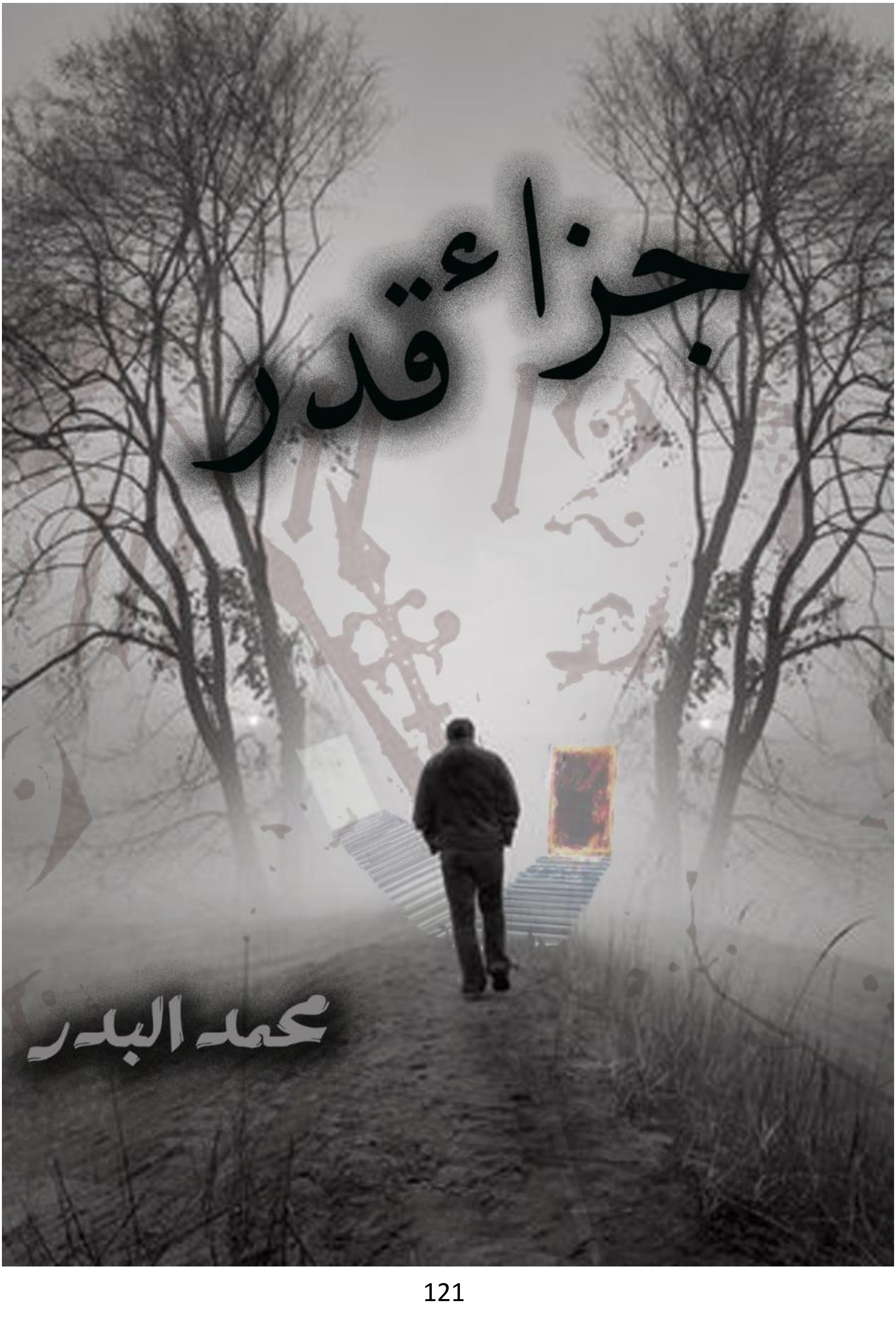
جزاء قدر
محمد البدر

## جزاء قدر

**خطّي خطًا فيكِ، وسميهِ باسمي،**
**لأنني مختلفٌ عن الّذين مرّوا من هنا قبلي.**

**محمد البدر**

في إحدى القرى الجبليّة البعيدة عن ضوضاء المدينة، وصخب المكيدة والحيل الّتي تمتلك بعض الشّلّالات الغزيرة الرائعة الواقعة بين الأشجار المحيطة بها، كأنّها لوحةٌ فنيّة مرسومة بدقّة وعناية، كان يقطن القرية سائد الشّابّ العشرينيّ قويّ البنية، سَليط اللّسان، ويحبّ قضاء الوقت وحده بعد العمل بعيدًا عن والده وأهالي القرية، ووالده الكبير في السّنّ يحترمه الأهالي، لكرمه، ورجاحة عقله، وشغفه بالزّراعة، وأعمال الأرض، كانوا يدعونه بطبيب الأرض لخبرته الطّويلة بها. هذان الرّجلان البعيدان عن حنان الوالدة والزّوجة، يستيقظان كلّ صباح للعمل في الحقل لجني قوت يومهما، غير أنّ سائد لم يحبّ هذا العمل يومًا، فهو يعتبر نفسه أرقى من عمل لا يوجد فيه تقدّم إلى الأمام. كان دائم التّذمّر، كما أنّ الحقل الّذي يعمل فيه بعقد إيجار منذ مدةٍ طويلة، فبحسب العقد، يذهب نصف المحصول إلى مالكه، وهذا ما كان يزيد من غضب سائد و كرهه للعمل، أمّا والده فكان يصبّرهُ، ويقول له:" وضعنا أحسن بكثيرٍ من أهالي القرية".

بعد يوم عملٍ متعب قصد سائد كعادته أحد المُنحدرات، المطلّ على القرية، وجلس لساعاتٍ طويلةٍ يتفكّرُ بحياته، ويقول في نفسِهِ:"لماذا أنا في هذه القرية الصغيرة؟، وهل سأستطيع تعيير حاضري إلى مستقبلٍ أجد فيه سعادتي؟، وماذا سأجني، وكلّ الّذين من حولي تغلب عليهم البساطة، وفي بعض الأحيان الضّعف.

يستيقظون في كلّ صباح لخمسةِ أمورٍ فقط، وهو يشعرُ دائمًا بأنّه أفضل من الكثيرين، وأنّه يرى الحياة بشكل مختلف عمّا يراها ممّن حوله، فلربّما يظنّ بأنّ له من اسمه نصيب، فكان يريدُ أن يسودَ العالمَ بفكره و طموحه. أسئلة، وأفكار كثيرة تدور في رأسه، وهوَ يراقب قريته الصّغيرة يوميًّا منتظرًا مغيبَ الشّمس، ثمّ يتوجّه إلى البيت مُردّدًا بينه وبين نفسه إن كان يستطيع

تغيير قدره في أحد الأيّام. بعد وقت قصير من المشي وصل إلى البيت، ينتظره العشاء وليلٌ أسودُ ينيره القمرُ، وغضب سائد على الحياة.

في إحدى الأيّام، وبعد يوم عملٍ شاقٍّ ذهب سائد كعادته إلى منحدره، وبينما هو جالس إذ به ينام من فرط تعبه. كان والده معتادًا عليه، لأنّ هذا الأمر تكرّر عدّة مرّات، فهو ينام بعض الأحيان، و يعود إلى البيت مع بزوغ الفجر. وهو نائم لم يعلم ما كان يدور حوله، وبينما هو مُستَغرق في النّوم كان صوتُ والده وأهالي القرية يصيحون أنقذوا المحصول، هناك حريق، حريق، اجلبوا الماء، وراحوا يتراكضون لكي يُخمدوا النّار الّتي تَشبُّ في الحقل، لينقذوا ما يستطيعون من الحصول. استيقظ سائد على صراخ شديد، وتفاجأ بالحريق، تجمّد للحظة في مكانه من روع المنظر، وهول المصيبة. كان المنظرُ يوحي بحرب في عتمة اللّيل الدّاكن، لكي تفوز تلك النّار بالحرب، وصوت الأهالي يزداد صخبًا.

بعد لحظات، ذهب مسرعًا إلى الحقل خوفًا على والده، وحين وصوله إلى المكان، بحث عن والده، وهنا ظهر الجانب الطّيب الحنون لسائد، فحين وجده، ضمّهُ بشدّة متفقدًا حاله متشكّرًا الأهالي لمساعدته في إخماد الحريق. جاء رجل من البعيدِ، يصيح بأعلى صوته:" لقد خرب بيتي، ذهب تعبي أدراج الرّياح، فماذا سأقول للتّجار، وقد أخذتُ منهم سلفةً، وصرفتها، ماذا سأقول لهم؟".

التفت الأهالي نحوه، وإذ به صاحب الأرض خالد، وحين اقترب، صاح به سائد:" عن أيّ تعب تتكلّم؟ أنا ووالدي من تعبنا، وأنت تأخذ المحصول، وبعدها تعدّ النّقود، فهل هذا تعب بالنّسبة إليك؟

أنت مجرّدُ رجلٍ جشعٍ، وضيعٍ، تحبّ نفسك.

صاح فيه خالدٌ:" وأنت ماذا ....؟

سائد: أنا من تأكل أنت من كفِّ يده ...

تجمّد خالدٌ لحظةً، فردّ عليه" من تظنُّ نفسك؟"، أنت بحاجة لي، فأنا لست من بحاجة إليك، فإذا طردتكَ أنت ووالدك من أرضي، ستأتونني مترجّين.

احمرَّ وجه سائد، وعلا صوته ملْء السّماء: سأعدم نفسي على أن أترجّى شخصًا حقيرًا مثلك.

خالد: أتشتمني، وأنا سيّدكَ، وسيّد النّاس الّذين من حولك.

سائد: سيّد نفسك، وعلى من يتبعك من القطيع، فأنا ولدت صقرًا مرفوعَ الرّأس، لكن بين كومة من الدّجاج.

نظر الأهالي في وجه بعضهم، مُتسائلين إن كان يقصدُهم في قوله، وما كان من والده إلّا أن صفعه صفعةً قويّة على خدّه، بيدِ مزارعٍ صُلبة، أوقعته على الأرض، بسبب إهانته للأهالي، و قال له:" قم واعتذر قبل أن أهينك، وأقلل من قيمتك أمامهم أكثر. وقف وهم ينظرون إليه، نظر إليهم مخاطبًا، بصوت مرتفع:" أنا لا أعتذر".

مشى متفحّصًا الجميع، فلم يكن راضيًا عمّا حصل له، والأهالي اغتاظوا من الكلام الّذي قيل بحقّهم.

مضى بخطواتٍ مسرعةٍ إلى البيت وخلفه والده، وحين وصل أغلق الباب بقوّةٍ، متوجّهًا إلى الغرفة، وقبل وصوله فَتح والدُه الباب، وقال:" أين أنت أيّها الولد العاقّ، أين أنت؟"

سائد: أنا لست عاقًّا.

الوالد: وما الّذي قلته بحقّ النّاس الّذين ساعدونا، مقلّلًا من احترامهم، واحترامي أيضًا.

سائد: لقد شكرتهم على المساعدة، لكنّ سُكوتَهم أمام المدعو خالد استثار غضبي، و قلت ما كان يجب عليّ قوله.

الوالد: أنت قليل التّربية، فغالبيّة الموجودين أكبر منّك سنًّا، وإهانتك لهم تعني إهانتي.أقسم بروح والدتك إذا كرّرت ما قلته، وصغّرتني أمام أحد

لأذهب، وأعيش في مكانٍ آخر بعيدًا عنك وأمنع أيّ أحد من الاقتراب منك، والحديث معك، وعليك الاعتذار غدًا بطريقة أكثر احترامًا، حتّى يرضى عنك الأهالي.
سائد : لم أر طريقةً أكثر احترامًا لأعتذر من كومة قطيع يتبعون أشخاصًا فارغين بلا قيمة، فتوجّه والده نحوه، وصفعه مرّة أخرى قائلًا له:" ألم أحذّركَ من تكرار ما فعلت؟".
جلس على الأريكة واضعًا يديْه فوق رأسه، متمتمًا:" ما الّذي فعلته حتّى أنجبت ولدًا يكره الأشخاصَ البسطاء"، ثمّ رفع صوته قائلًا:" البساطة هي القوةّ، الحبّ، هي أن تتمنّى الخير للآخرين، لك، وللغير.
التفت نحوه سائد متوتّرًا:" لن أتراجع عمّا قلته، لأنّها الحقيقة، ولن أبقى في هذه القرية الضّعيفة".
وبصوتٍ حنونٍ خافتٍ، قال له والده:" لا أريدك أن تحيا في عتمة سوداء، فتدمّر نفسك بحثًا عن قيمةٍ مظلمة، لأنّ قيمتك هي بين النّاس الّذين تربّيت معهم، يعرفونك وتعرفهم، ويحبّونك، وإذا اقتربت منهم أحببتهم".
توجّه سائد إلى القبو، وأخذ حقيبةً بنيّة اللّون، يكسوها الغبار، حاول تنظيفها قدر المستطاع من دون أن يتفقّدها، ووضع فيها بعض ما يحتاجه، وخرج من القرية من دون أن يلتفّت خلفه، تاركًا والده الحزين على فراقه. غادر القرية، فلم يكن لديه خيار الرّجوع. لم يتوقّف عن المشي حتّى خارت قوته، فجلس قرب شجرةٍ كبيرةٍ، وغطّ في نومٍ عميقٍ. حين فتحَ عينيه في الصّباح الباكر لم يكن يعلم إلى أيّ مكانٍ وصل. وقف والشّمس مغطّيةً جسده، نظر إلى المكان الذي هوَ فيه، وحين التفت رأى شجرةً ضخمة الحجم، فقال لها:" ما أجملكِ من شجرة! كأنكِ عجوز، وكلّ خطّ فيكِ يروي حكايةً".
سكت قليلًا متذكّرًا والده وأهالي قريته، وصاحَ بأعلى صوته:" أنا أقوى من عجوز يرى الحياة بخبرة جافّة"، ثمّ جمع حاجاته، التقط حقيبته وقال

للشّجرة:" خطّي خطًّا، وسميهِ باسمي، لأنّني مختلفٌ عن الّذين مرّوا من هنا قبلي".

بعد خطواتٍ قليلة، رأى نهرًا، فتوجّه نحوه بخطوات أكثر سرعة، وصل إلى النّهر، ومن دون أن يتفقّد المكان، وما إن همّ لغرف الماء، وإذ بصوت رجلٍ يرنّ في أذْنه: " أيّها الفتى، لماذا أنت في عجلةٍ من أمرك"؟

سائد:" مرحبًا أيّها الرّجل"

الرّجل:" اسمي منصور".

تحدثا مع بعضهما البعض، وهم جالسين قرب النّهر، فكان منصور كثير الأحاديث، أمّا سائد اختصرت أجوبته على نعم، أو كلّا.

- من هم شعب أهل التّراب؟

قال سائد:" هذه هي المرّة الأولى الّتي أسمع بها عنهم، حدّثني عنهم".

- شعبٌ لا يعترفون بأرضٍ، ويعتبرون أنّ جميعَ المدن والأراضي وطنهم، يزورون أماكنَ كثيرة، و يتعرّفون على ثقافاتٍ وعاداتٍ كثيرة، هم دائمو التّرحال، ويعتمدون على التّجارة". عندما انتهى حديث منصور عنهم، سأله سائد لماذا أخبرتني عنهم.

منصور: لأنّهم قريبون من هنا على مسافة يومين سيرًا على الأقدام، واعتقدت بأنّك منهم.

سائد: و في أيّ اتّجاه هم ؟

قال: في اتّجاه الغابات الشّماليّة. كنت عندهم منذ مدّة.

بقيا معًا بقرب النّهر يتسامران إلى أن حلّ اللّيل، وخلدا للنّوم. لم تغمض عينا سائد إلّا قليلًا، فكان يفكّر بشعب التّراب، والانضمام إليه.

في الصّباح الباكر ودّعا بعضهما، فقرّر منصور أن يقدّم هديّة لسائد، كانت عبارة عن بعض من الطعام مفترقين، بعد إعلان نيّة سائد بالتّوجّه إلى شعب التّراب. ذهب إلى الغابات الشّماليّة للّقاء بهم متسائلًا عن حياتهم، وإن

كـــانوا ســيقبلونه بيـــنهم، كـــان متحمّسًــاً كثيـــرًا لملاقـــاتهم، يمشـــي بخطـــواتٍ ســـريعةٍ، كأنّـــه ذاهـــب لملاقـــاة شـــخص عائـــد مـــن السّـــفر لـــم يـــره منـــذ مـــدّة طويلـــة. لـــم يكـــن علـــى درايـــة بطبيعـــة الأرض المتوجّـــه إليهـــا، فقـــد ســـقط فـــي حفـــرة عميقـــة مغطـــاة بـــأوراق الشّـــجر، وكـــان قـــد حفرهـــا الصّـــيّادون لاصـــطياد الحيوانـــات البريّـــة، فأصـــيبت قدمـــه إصـــابةً بليغـــةً، وهـــذا مـــا زاد الأمـــرُ ســـوءًا، فلـــم يكـــن فـــي المكـــان غيـــره، وكـــان مـــن الصّـــعب الخـــروج مـــن الحفـــرة العميقـــة مـــع قدمـــه المصـــابة، فراح يصيح بكلّ قوته، مستغيثًا، فلربّما يحظى بالنّجدة من أحد المارّة.

حـــلّ الليـــل عليـــه متألمًـــا حزينًـــا، فكانـــت آخـــر توقّعاتـــه أن يحـــدث مـــا حـــدث لـــه متـــأملًا ممّـــن حفـــروا الحفـــرة أن يـــأتوا بأســـرع وقـــت. لـــم يجـــدِ تلبيـــة لندائـــه بالمســـاعدة، لأنّ المكـــانَ خـــالٍ مـــن أيّ أحـــد، فـــلا صـــوته ولا صـــداه أفـــادا فـــي شـــيء، و مـــع كـــلّ مـــا أصـــابه لـــم يتخـــلَّ عـــن فكرتـــه الّتـــي تـــدور فـــي رأســـه، وهـــو جـــالس فـــي تلـــك الحفـــرة يطبّـــب قدمـــه المصـــابة، تـــذكّر القريـــة الّتـــي خـــرج منهـــا، ووالـــده حـــين عـــالج جرحًـــا أصـــاب ذراعـــه فـــي أثنـــاء عملـــه فـــي الحقـــل، والأهـــالي الّذين كانوا يطمئنّون عليه، ويطلبون منه بأن لا يتعب نفسه.

حـــين تـــذكّر تلـــك الكلمـــات وقـــف منتصـــبًا علـــى قدميْـــه، وقـــال: "مـــا هـــذه الحيـــاه الّتـــي يريدون أن أعيشها، وعن أيّ هدوءٍ يتكلّمون؟"

أنـــا لا أحـــبّ حيـــاة الهـــادئين، أريـــد أن أكـــون متمـــرّدًا، لأنّنـــي أرى فـــي أعـــين المتمردين شغف الوصول إلى المجد.

كـــان المـــاء والطعـــام يتناقصـــان يومًـــا بعـــد يـــوم، ومـــا بقـــي معـــه لا يكيفيـــه إلّا ليـــومٍ واحـــدٍ, وحينمـــا كـــان يتفقّـــد حقيبتـــه، وجـــد ظرفًـــا بداخلـــه ورقـــة ملفوفـــة بعنيايـــة، ففـــتح الظّـــرف فوجـــد ورقتـــيْن، فـــالتقط واحـــدة، وشـــرع فـــي قراءتهـــا، فتغيّـــر لـــون وجهـــه، وارتجفـــت يـــداه تاركًـــا الورقـــة تســـقط علـــى الأرض، ورفـــع يديْـــه فـــوق رأســـه، فهـــذه الورقـــة كانـــت عقـــد شـــراء الأرض الّتـــي يعمـــل فيهـــا هـــو ووالـــده،

وقـــال:" يـــا لجشـــع الـــنّفس الخبيثـــة!، وكأنّـــه رأى الشّـــرّ لأوّل مـــرّة فـــي حياتـــه، فكيف استطاع أن يسرق منّا تعبنا كلّ تلك السّنين، ويكذب علينا ؟"

قــرّر العــودة إلــى المنــزل بأيّــة طريقــة، ويُخبــر والــده بــأنّ الأرض الّتــي يعمــل فيهــا هــي ملكــه، ويعلمُــه بكــذبِ ونفــاق المــدعو خالــد، وكانــت الورقــة الثّانيــة رســالة مــن جــدّه لوالدتــه، يشــرح بهــا كيــف اشــترى الأرض، وأخفــى الأمــر. فقــد جمــع الجــدُّ كــلّ أموالــه، لكــي يشــتري هــذه الأرض، لأنّــه كــان يعلــم بطبيعــة مرضه، وبأنّه لن يعيش طويلًا، وطلب من خالد أن يخبر النّاس بعد وفاته.

ازدادت رغبتــه بــالخروج، لكــي يعــرف كــلّ النّــاس شــجع خالــد، ومــا فعلــه مــع والــده، ومــا أحزنــه تــذكّره كيــف كــان ينظــر إلــى وجهيهمــا وهــو يأخــذ المحصول.

فــي ذلــك اليــوم بعــدما خــرج ســائد مــن القريــة متــذمّرًا تبعــه والــده بخطــوات رجــلٍ كبيــرٍ مســنّ، فكــان أبطــأ منّــه حتّــى إنّــه أضــاعه، فكــان يســأل عــن الطّريــق، وهــو مــارٌّ بقــرب المكــان الّــذي تواجــد فيــه ســائد، التقــى منصــور بشــخصٍ مســنٍّ، فانهالَ عليه بالأسئلة، وكان ذلك الرّجل والد سائد.

منصــور: اصــبر قلــيلًا أيّهــا الرّجــل، مــا بــك تــتكلم كثيــرًا مــن دون أن توضّــح مــا تريده"؟

الوالــد: إنّــي أبحــث عــن ابنــي، فقــد خــرج مــن القريــة، وهــو حــزين، وأظنّــه مــرّ من هنا، لأنّي كنت أتبعه، وتاه عن نظري.

منصــور: صــفه لــي، فوصــفه الوالــد، وقــال:" أريــد أن أقابلــه، لكــي أعيــده إلــى الأهالي الّذين يحبّونه".

قــال منصــور:" نعــم أعرفــه، لقــد تقابلنــا منــذ مــدّة قصــيرة، لكنّنــي أعــرف وجهتــه، أظنّه ذهب إلى شعب التّراب.

- كيف عرف سائد مكانهم ؟

منصور: أنا أخبرته عن مكانهم، لأنّي قابلته بعدما قابلتهم بمدّة قصيرة.

الوالد: أين يتواجدون حتّى أذهب إليهم، وأقابل ابني.
عرف الوالد مكان سائد، فتوجّه إليه مسرعًا.
كانـتِ اللّيلـة الماضـية بـاردة جـدًّا، فـلا النّـوم كـان يجـدي مـع معـدة فارغـة، ولا جسـد قـويٌّ يحتمـل كـلّ هـذه الظّـروف القاسـية. بـدأتِ الأمـور تتجـاوز حـدود الصّـبر، فـلا يوجـد طعـام ولا مـاء، وبـرودة الجـوّ أسـوأ مـا فـي الأمـر، ففـي تلـك اللّحظـة تأكّـد بأنّـه لا مجـال للخـروج مـن الحفـرة، وأنّـه ميـت لا محالـة، فقـرّر أن يكتب رسالة لمن يجد جثمانه.
إلـى والـدي الحبيـب، وأهـل قريتـي الأشـقّاء، أعلـم بـأنّكم تأخـذون موقفًـا منّـي، لكـن أنـا حـزين علـى نفسـي أكثـر، لأنّنـي لـم أعـرف قيمـتكم إلّا عنـدما فـارقتكم. اليوم، لن أكونَ معكم، ولن تروني مرّة أخرى، أريد منكم أن تسامحوني.
والـدي، سـامحني، لقـد قلّلـت مـن احترامـك، لكنّهـا كانـت لحظـة غضـب، لكـن لـذلك حكمـة، فلـو لـم يحـدثْ مـا حـدث، لمـا علمنـا أنّ الأرض الّتـي نعمـل بهـا يـدًا بيد هي لنا، اشتراها جدّي وكتبها باسمك، لكي لا تبقى مدينًا لأحد.
ثمّ كتب وصيّته،
إلـى مـن وجـدني يتيمًـا فقيـرًا داخـل حفـرة، شـكرًا لـك، لأنّـك أخرجتنـي، وتقـرأ وصـيّتي، أتمنّـى عليـك أن توصـل الرّسـالة، والظّـرف فيـه ورقتـان موجودتـان داخـل الحقيبـة، إلـى قريـة فـي الشّـمال، تبعـد مسـافة تسـعة أو عشـرة أيّـام مشـيًا علـى الأقـدام، تـدعى قريـة الفلّاحـين، وأوصـيك أيضًـا بـأن يكـون قبـري فـي الحفـرة، وأرجـوك أن تضـع حجـرًا فـوق رأسـي وتكتـب عليهـا هـذه الكلمـات (صقر خرج من صومعته، فمات مكسور الجناحين).
مالـت أطرافـه إلـى الازرقـاق. ليلـة أخـرى أشـدّ بـردًا، فشـعر بـدوارٍ، لنفـاد الطّعـام، فعلـم أنّهـا سـاعات معـدودة، ويمـوت، ومـا كانـت إلّا سـويعات قليلـة حتّـى سـمع صـوت والـده، وهـو يناديـه. لـم يسـتطع أن يـردّ عليـه مـن شـدّة ألمـه،

وتشــــقّق حلقـــه مـــن الجـــوع والعطـــش، وهـــذا آخـــر صـــوت ســـمعه، وأغمـــض عينيْه، ونام بسلام، ليذهب إلى سلام.

اوجاع
الذاكره
ياسر وكاع

## أوجاع الذاكرة

من بين كلّ تلك المعارك مع أوجاعِ ذاكرتي،
هناك قد أتاني الحبّ،
ليعيدَ إعمار قلبي من دون شروط أو أذونات.

**ياسر الوكاع**

مجموعه من الأوراق، وقلم، والمساء المصحوب ببعض الرّياح المبشرة بشتاء، أتاني شعور غريب دعاني للكتابة، فقد أحسست بكائنٍ داخليٍّ، يقول:

- تحدّث عن نفسك، فالأوراق الّتي أمامك ستحسّ بك.

حملت القلم، وبدأت بسرد ما فعلته حتّى هذه اللّحظة، وما سأنوي فعله مستقبلًا. أحلام كثيرة في زهوة الشّباب، المال، البنون، الجميلات، الشّهرة، البطاقات المصرفيّة، امتلاك كلّ شيء، فهذه طاقات الشّباب. بدأت بتحقيقها، لكنّي تفاجأت بالكثير من خيبات الأمل، الّتي سأكتب، والّتي لم تتحقق إلى الآن.

لدي طموح، ولن يقتلوه بحربهم، ولا بإرهابهم. لا يوجد مستحيل مع الأمل، لكني وقفت أمام تساؤلٍ كبير حول إن كانت الحرب قد سرقت منّي الكثير من أحلامي. جالت أفكار كثيرة في مخيّلتى، لقد بدأت الكتابة، فأنا أودّ أن أفرغ ما بداخلي على الأوراق .

أنا شاّب في العشرينات من عمري، أحمل الكثير من الأحلام، وفي الوقت نفسه الكثير من المسؤليات. قبل الحرب كانت كلّ أحلامي تنحصر في إنهاء تعليمي، والتّفرّغ لبناء ما كنت أطمح إليه، وبرغم كلّ هذه المصاعب كتبت أحلامي على آخر ورقة من شجرة على وشك الموت، وفجأة ومن دون سابق إنذار دقَت طبول الحرب، فأحسست حينها أنّ كلّ شيء قد انتهى، وصارت أحلامي كعجوز يتوكّأ على عصاه، ويجر خلفه خيبات الأمل.

فوضى عارمة في داخلي، أتخبّط يمنة ويسرة، لملمت شتاتي، وقرّرت التعايش مع الحرب، وتوقّفت عن التّعليم، وكنت في بدايات المرحلة الجامعيّة. تابعت حياتي، عملت في عدّة أعمال، لكن لم أعد أستطيع تحمل ذلك العبء، فقرّرت السّفر، وبعد العديد من المحاولات للبقاء. كانوا يعلّموننا في المدارس بأنّ بلاد العرب أوطاني، لكنّي عندما وقفت على أبوابهم لأوّل مرّة أدركت أنّها ليست "أوطاني"، ولا حتّى أخواني. ربّما هم أخوة، لكنّهم من غير" أمّ".

من أنت؟ بطاقتك؟ من أين أتيت؟ ولِمَ أتيت؟ وتحقيق موزون.

- أنا عربيٌّ، أتيت إلى بلاد أخواني.
- لاتكثرِ الكلام، أعطنى إثباتاتك الشّخصيّة، الهُويّة، جوازسفرك، إقامتك، الكفيل.

شعرت حينها بأنّي أدخل إلى بلادٍ غريبة، تبًّا لتلك الفرقة الحمقاء!

دخلت بعد عناء طويل، وبدأت رحلة الغربة، وحيدًا من دون أهل وأصدقاء. استقبلني عدد ليس كبيرًا من المعارف، بضجّة الحديث والأسئلة حول دخولي، وحول ما يدور في بلادنا.

لم أعد أحتمل الأسئلة، فهربت من كلّ هذه الأسئلة، واستسلمت للنّعاس، غير متخيّلٍ ماسيحدث غدًا. أيّام عديدة مرّت، وبدأت العمل. لم أكن أعرف شيئًا، لكنّي حاولت التّعلّم، عانيت كثيرًا من التّنمّر، والعنصريّة الحمقاء على ذنب اقترفه غيرًا، لكنّي قلت في نفسي:" سأتحمّل"، فأنا اخترت طريقي، وسأكون ما أردت صابرًا، وما زالت رحلتي مستمرّة في بلاد الغربة، وحنين الشّوق للدّيار، للأهل، وللأصدقاء. سنعود يومًا. كنت كثير الاشتياق لرائحة طعام أمّي، ومجالسة أبي، وسماع أحاديث التّاريخ والشّعر.

كنت أظنّ أنّ الكتابة عمل سهل، أملّ، فأعدّ فنجانًا من القهوة السّوداء، وأشعل سيجارة، لكنّي اكتشفت أنّها من أصعب الأعمال. أشعر بالحنين إلى بلدي الّذي عاثت فيه الحرب، ولم يتبق فيه غير أكوامٍ من الحجارة، أو أكوام من العجائز الّذين ينتظرون عودة أبنائهم الّذين رحلوا. هذه الحرب لم يشهدها تاريخ قطّ، إنّها حرب الأخوة. لقد دُمّرت أحلامنا.

في مكانين، في هذا العالم، تتذكر أحداثًا، وتفاصيلَ، وأشياء مرّت عليك في طفولتك. في بلادك تكاد تقول لنفسك إن المستحيل يصير حقيقة، لكن في الغربة والسّجن تمرّ بك تلك الأحداث بطيئة.

أتذكّر أيّام الضّباب المحبّبة لي، وأحبّ ممارسة عادات الكبار بعمر المراهقين التّدخين، ففي الضّباب يختلط الدّخان بالضّباب الأبيض، ولا أحد يراك وأنت تمارس التّدخين بالسّرّ عن أهلك، وكذلك في الذّكريات هناك فصول موجعة، ففي إحدى اللّياليّ كانت هناك حركة للطّيران الحربيّ، وقد سمعت حينها أصوات انفجاراتٍ، وكنّت كلّما سمعت هذه الأصوات أدرك أنّ عددًا من الشّهداء سقطوا.

لم أكن أعلم أن أخي سقط شهيداً، أخي الذي سيكون غصة في القلب، لن أنسى مشهد جسده المقطع إلى أجزاء. لم يكن أخي من أولئك الذين لهم انتماءات حزبيّة، لكنّ ذنبه الوحيد أنه مرّ في المكان، في التوقيت الخاطئ.

صرنا في بلدنا أرقاماً فقط. الشهداء لا نعرفهم إلا من أرقامهم، كذلك في المعتقلات وأعداد حوادث الغرق وأعداد المهجرين.

اليوم أكتب ألمًا، ووجعا، وصرخةً، ومهما تحدّثت بها لشخصٍ، فلن يحسّ ما بداخلي، لكنّي أكتب لتدوّن قصّتي مع مجموعة من أصدقائي، في مجموعة من حكاية شباب وشابات مغتربين مثلي، وأجمل مافي الأمر سيكون هناك كتاب كأحلامنا.

**فرقة لاجئ للتراث والفنون الشعبية والحديثة.**

فرقة فنية مستقلة، تأسست بمبادرة فردية من الأختين "سلام وربا رحمة" في شباط 2015، صيدا- لبنان. تضم الفرقة فنون: " الدبكة، المسرح، البريك دانس، الشعر، الراب، الغناء، التهريج، الشطرنج، الرسم، التصوير والمونتاج ".

**هدف الفرقة:**

المساهمة في حماية الشباب\ات من التطرف والانحراف وتعزيز ثقتهم بأنفسهم من خلال الفنون، وبناء قدرات شبابية فنية فاعلة وقادرة على التغييرالإيجابي في المجتمع من جنسيات مختلفة، وكسر الصورة النمطية للاجئ وتعزيز التواصل بينهم وبين المجتمع اللبناني.

حققت الفرقة نجاحاً في العمل الاجتماعي والفني وصارت مثالاً يُحتذى به بكونها الفرقة الأولى في لبنان للاجئين القادمين من سوريا والتي استمرت دون دعم أو تمويل من أي جهة، ولاقت من التحديات والصعوبات الكثير، حيث اتخذت من الكورنيش البحري والجمعيات الصديقة وبيوت أعضاء الفرقة مكاناً للتدريب والاجتماعات، واعتمدت على مسابقات ومنح تُطلقها الجمعيات والمؤسسات الداعمة للمشاريع الصغيرة.

قامت بأكثر من خمسين عرض ومشاركة في الفعاليات اللبنانية والفلسطينية في كل أنحاء لبنان، ونجحت بتكوين شبكة علاقات جيدة مع بلدية صيدا والمؤسسات الأهلية والمحلية اللبنانية والفلسطينية. نتج عن الفرقة عدة مبادرات فردية قادها الشباب أنفسهم وهي:

- فريق البريك دانس بقيادة صالح علي رحمة.
- فريق الدبكة بقيادة بلال محمد خير قاسم والذي أسس زفة البلابل للأعراس.
- فريق الراب بقيادة عبد المالك العلي الذي أسس استديو لاجئ للتسجيلات الصوتية.
- فريق الشعر بقيادة طلال دادو الذي أسس مبادرة هوية أمل وهذا الكتاب جزء منها.
- فريق التصوير والإنتاج : محمد شهاب، وليد حوراني، وسيم منلا علي، علاء شحادة.

ولابدّ من ذكر أسماء بعض أعضاء الفرقة الذين كانوا منذ بداية التأسيس وساهموا في استمراريتها: "أدهم حمود، براء صالح، ابراهيم حسن، أحمد جابر، محمد مواس، عامر زين، أمجد دفضع، سليم ساعاتي، عمار النداف، أسامة محمد، محمد صالح، طيبة دادو، محمد البدر، سليمان الإمام، حافظ أبو حويج، عبد الله خليل، محمد خليل، أسامة أبو طه، مجد سويد، أيهم قاسم، حمزة قاسم".

## الفهرس


| الصفحة | عنوان القصة | الكاتب |
|---|---|---|
| | برنامج المدن الشابة | الممـــول |
| | المقدمــة | د. انتصار الدنان |
| | مأتم للأحـــلام | ابراهيــم حســـن |
| | وللحــلم بقيـــة | ربـــا علـي رحمــة |
| | بنفســج | رشـــا علي علي |
| | لقـاء و وداع | رشـــا مرعي |
| | العنقــــاء | رويـدا خـالد قـاسـم |
| | كـرامـــة للبيـــع | ســـارة أحمـد البيطــار |
| | غربتـــان | طـــلال داود |
| | تلافيف عشق | طيبــــة داود |
| | جزاء قدر | محمــــد البـــدر |
| | أوجـاع الذاكـرة | ياســـر وكــــاع |
| | لمحة فـرقـة لاجـئ | |
| | الفهرس | |